العودة إلى الذات

أن تكون أو لا تكون

الدكتور

حسين بن الصديق

دار الملتقى
للطباعة والنشر والتوزيع

الدكتور حسين عبد الله الصديق
ولد في حلب عام ١٩٥٠م
حصل على شهادة دكتوراه الدولة من السوربون / فرنسا ، اختصاص نظرية الأدب.

أستاذ نظرية الأدب و علم الجمال في قسم اللغة العربية في كلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة حلب

مؤلفاته المنشورة :
١- المدخل إلى تاريخ الفكر العربي الإسلامي - مطبوعات جامعة حلب / ١٩٩٣
٢- مقدمة في نظرية الأدب العربي الإسلامي - مطبوعات جامعة حلب / ١٩٩٤
٣- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد - لابن الأكفاني - تحقيق مشترك - مكتبة لبنان / ١٩٩٧
٤- المناظرة في الأدب العربي الإسلامي - منشورات مؤسسة لونجمان المصرية - القاهرة / ٢٠٠٠
٥- الإنسان و السلطة - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق / ٢٠٠١
٦- فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي - دار القلم - حلب / ٢٠٠٢
٧- رسالة في العشق - لابن سينا - تحقيق و شرح مشترك - دار الفكر بدمشق / ٢٠٠٥

دار الملتقى للطباعة والنشر

شعارها

«من أجل وعي أعمق بقضايا الإنسان والعصر

تأسست دار الملتقى عام ٢٠٠٢ في مدينة حلب

تحرص في منشوراتها على قيم الثقة والتميز والتجديد

تتوزع منشورات دار الملتقى على مجموعة من المحاور هي:

أولا- التنمية البشرية : بمفهومها العام

ثانيا- المعارف والعلوم الإسلامية:

ثالثا- الترجمة: مما ينسجم موضوعه مع سياسة النشر التي تحرص عليها.

الرسالة:

ابتغاء تحقيق وعي أعمق بقضايا الإنسان والعصر والإسهام الجاد في حركة التنمية الثقافية والبشرية، تجدّ دار الملتقى في نشر الكتب والبحوث والدراسات الجادة تأليفا وترجمة، مستفيدة من خبرات نخبة من الباحثين والمتخصصين والخبراء في قضايا الفكر والثقافة والتنمية البشرية، وتحرص على أن يكون ما تقدمه في الطليعة، ويصل إلى أكبر قدر من الجمهور العربي.

الرؤية:

نطمح إلى أن نكون في طليعة المؤسسات الرائدة في عالم النشر العربي نوعا وكما، وأن تغطي منشوراتنا أرجاء الوطن العربي الكبير بأن يكون لنا كتاب في كل مكتبة، وتلبي جزءا من مستلزمات التطوير الثقافي والحضاريّ المنشود.

هذا الكتاب

"العودة إلى الذات" عنوان موح ودالّ في الوقت نفسه، وهو محور هذه الدراسة التي ليست في الفلسفة كما قد يمكن تصنيفها! كما أنها ليست في السياسة أو الدين أو الثقافة، إنها في الإنسان، وهو اختصار كل هذه التحديات، إذ إنه هو صاحب الحياة ومحركها، وهو في الوقت نفسه عضوٌ فيها، ولعلّ إهمالَ الإنسان أو نسيانه في الدراسات العربية المعاصرة، هو الخلل الذي نتجت عنه كل الأخطاء التي وقعت فيها هذه الدراسات عندما قررت له كيف يجب أن يعيش؟ وكيف يفكر؟ وما الثقافة التي عليه تبنيها؟ وماذا يتعلم وكيف؟ وقررت له أيضا متى بإمكانه أن يتزوج، وكيف يربي أولاده؟ ولكنها نسيت أن تعرف من هو، ولماذا هو موجود، وما الثقافة المحركة له في حياته، وما مفهوم الحياة بالنسبة إليه؟

هذه الدراسة للإجابة عن السؤال الذي آنسيناه: من نحن؟ ولماذا نحن؟ وكيف يمكن أن نكون نحن؟ وأعتقد أن السؤالَ ملحّ، والإجابة عنه أكثرُ إلحاحا لأننا طالما ترددنا، منذ قرن ونيف، بين أن نكون وألا نكون. إلا أننا منذ العقد الأخير عقدنا العزم على أننا لسنا، وأننا يجب...

الكتاب إذن هو دعوة إلى التجدد والتجديد، في زمان يقر فيه الجميع بسوء الحال وظلام المآل، وترتفع فيه الأصوات بالشكوى والأنين من هذه الحال، حتى طغى على أكثر الناس اليأس والتشاؤم وعدم الجدوى، وغلب عليهم شعور بالإحباط فاستسلموا، وغابت عنهم روح التفاؤل والمقاومة، واختفى من بينهم الإبداع. إلا أن نور الأمل لا يطفأ، وهو ما يزال ينير قلوب كثيرين، والنصر قادم لا محالة، والمسألة اليوم تتلخص في إعداد النفس للمشاركة فيه، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

ISBN 978-9933-472-22-1

9 789933 472221 >

دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع

www.dar-almultaka.net

دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع

www.dar-almultaka.net

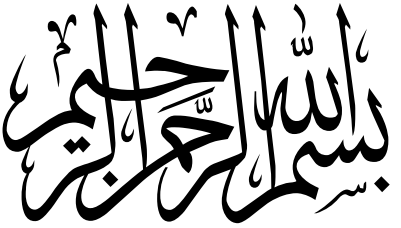

العودة إلى الذات

الدكتور حسين الصديق

www.asseddik.com

العودة إلى الذات

أن تكون أو لا تكون

الدكتور
حسين بن الصديق

دار الملتقى
للطباعة والنشر والتوزيع

إهداء

أيها الحبيب

مذ دخلت قلبي تحطمت الأصنام فيه،

ولم يعد مسكناً لغيرك،

وعندما يولي الناس وجوههم شطر البيت العتيق

فإنني أولي وجهي نحو قلبي

لأنك فيه.

الفهرست

- مقدمة..... ٤
- الفصل الأول: العودة إلى الذات ١٥
- الفصل الثاني: الزمن المطلق والزمن المقيد ٤٥
- الفصل الثالث: حرية الوجود أم عبودية الاتباع ١٠٧
- خاتمة ١٤١
- مراجع الدراسة.....١٤٧

مقدمة

عندما تقف أمام مرآة، تذكر أن الجسد الذي تراه ليس ملكاً لك، وإنما هو عبد مسخر لك، تعود ملكيته لخالقه، وهو ليس مسؤولاً عما تفعله، بدليل أنه سيشهد عليك يوم القيامة على الرغم من أنه آلتك في عمل ما قمت به من أنواع السلوك في الحياة الدنيا، فاحرص على أن تحسن استخدام هذه الآلة، فلا تظلمها بظلم نفسك. واعلم أن هذه الآلة دائمة التجدد والتغير أبداً، فهي ليست تبقى في حال واحدة كما تظن، بحسب الظاهر، وإنما هي متجددة في كل لحظة، إذ تولد في كل دقيقة ثلاثمائة ألف خلية لتحل مكان مثيلاتها التي ماتت في الوقت نفسه. وهذا يعني أن جسدك في تجدد مستمر، إلا أن الخلايا الجديدة لا تولد من فراغ، وإنما تحمل في داخلها البرنامج نفسه الذي ورثته من الخلايا الميتة، لتضيف إليه خبرتها الجديدة هي، وتورثها بدورها، جميعاً للخلايا الجديدة.

وإن كانت معرفة هذا مهمة فلأنها تدل على أنك قادر على إعادة برمجة خلاياك من خلال اختيار أفعالك، بعد أن تكون فيما مضى من عمرك لا تفعل ذلك. فقد آن الأوان لتطرح على نفسك السؤال الآتي: هل أنا موجود بذاتي أم بغيري؟ ولهذا السؤال علاقة جدلية بسؤال آخر: هل أنا صورة أم حقيقة؟،فالإنسان يملك صورة وحقيقة، ولكنه غير موجود في الواقع المعيش إلا بصورته، وهي ليست من صنعه في أغلبها، وإنما ساهم

في صناعتها عوامل لا حصر لها: الأب، والأم، والأسرة، والمدرسة، والحي، والبلد، والنظام السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والاقتصادي، إضافة إلى المكان، والزمان ببعديه: الحاضر والماضي.

تقرر مقولة قديمة أن المعرفة هي صورة موضوعها وليست حقيقته. وإذا عممنا هذه المقولة لتشمل الوجود الإنساني في كل أبعاده ومستوياته أصبحنا نملك جواباً على ما يعانيه الإنسان من حروب ونزاعات، وخصومات واختلافات، سواء أكان هذا على مستوى الفرد والمجتمع أم على مستوى الأمم والحضارات.

القضية تكمن في أننا لا نتعامل مع الآخر من خلال حقيقته، وإنما من خلال صورته التي صيغت لدينا تحت تأثيرات داخلية وخارجية لا حصر لها. إن أداتنا في اكتساب المعرفة، أو في صنع صورة موضوعها، إنما هي العقل وحواسه الخارجية التي تجمع المادة من الخارج وتنقلها إلى الداخل، ليقوم العقل بتحليلها وتصنيفها، ومن ثم تخزينها في الذاكرة ليستفيد منها في صياغة الأوامر الخاصة بالفعل ورد الفعل، إزاء تلك المعرفة. ولكن المسألة أكثر تعقيداً مما هي في الظاهر، إذ إن الحواس والعقل ليسا حرّين في عملهما، فهما محكومان من جهتين: الأولى ذاتية، ونقصد بها مجموعة العوامل اللامتناهية التغير، من مثل العمر، والجنس، والمستوى الثقافي والمعرفي، الفردي والاجتماعي، والثانية موضوعية، ونقصد بها

مجموعة العوامل التي لم يختر الإنسان العيش فيها بإرادته في الأغلب والأعم، من مثل المكان والزمان والبيئة الجغرافية والبلد، والأمة والحضارة. إن ذلك التعقيد هو مصدر تشابك العلاقات الإنسانية وتشعبها وتغيرها المستمر، وهو بالتالي مصدر صعوبة دراستها وفهمها بشكل دقيق، وبخاصة عندما نتصور أن ما تقدم يشمل كل العلاقات في المجتمع الإنساني.

ولكن السؤال الأخطر في هذه القضية هو أنها تمتد لتشمل الفرد ذاته، فيرى المرء نفسه، ويتعامل معها من خلال صورتها لديه، وليس من خلال حقيقتها، فالمرء، منذ صغره، يُلقن كيف يرى نفسه من خلال قياسها على غيره، كما يتلقى صورة ذاته من الأهل والأسرة، والأصدقاء، والمدرسة، والوسط الاجتماعي والثقافي، فيرى نفسه في مرآتهم، ويعيش بهم، ولا يدرك معنى الوجود بالذات إلا إذا امتلك المعرفة الضرورية لذلك. وهو عندما يتعامل مع الآخرين لا يراهم إلاّ من خلال الصورة التي كُونت لهم عنده، وتدخل في رسمها عوامل لا تحصى، يأتي في طليعتها الوسط الاجتماعي والثقافي الذي يعيش فيه. هذه الحقيقة يمكن أن تعمم لتشمل كل الوجود الذي يحيط بالفرد، وعلى رأسه الإله الذي يؤمن به هذا الفرد، وهو ما يؤسس الاختلاف بين الناس في الأديان، بل وبين أتباع الدين الواحد. فيرى كل فرد الإله كما يشاء أو بحسب الصورة التي

رسمت له عنده من قبل الآخرين، وهو يتعامل معه من خلال تلك الصورة، ويقدمه للآخرين من خلالها، فيساهم في صنع صورته عندهم. وإذا كان الاختلاف واسعاً جداً بين الناس في أمور الدنيا، بسبب الصور، وهو اختلاف يقود إلى الاقتتال أحياناً، فإن الاختلاف بينهم في أمور الدين، بسبب الصورة أيضاً، يقود إلى كوارث اجتماعية وإنسانية.

هل خطر ببالك يوماً أن تسأل نفسك: هل أنا موجود؟ وهل تساءلت عن معنى أن تكون موجوداً بذاتك لا بغيرك؟ الواقع أن السؤال صعب، وقد تظن أن طرحه عبثي لا معنى له. والحق أن هذا هو مصدر غياب الإبداع في حياتك، لأنك لست موجوداً على الحقيقة، وإنما أنت نسخة عن الآخرين الذين ساهموا في صنع صورتك، فلم تعد تعرف إن كانت هذه الصورة هي حقيقتك أم صورتك، وهل أنت موجود بذاتك أم بغيرك؟

منذ ولادتك كان ثمة من يختار لك أنموذجاً تقلده، سواء أكان هذا على المستوى الاجتماعي أم الديني أم الثقافي أم السياسي. وأنت، في كل هذا، تنفعل وتكتفي بالتلقي، ولا يمكنك الرفض، إن أردت. وقد دربت من طفولتك على أن تكون كابن العم أو كابن الجيران، أو كإحدى الشخصيات التي تعرفها، أو لا تعرفها إلا من خلال سماعك بذكرها. حتى يصبح أكبر آمالك أن تكون كزيد أو كعمرو، ولن تتمكن في أغلب

الأحوال من ذلك لأن صورة الأنموذج المقدم لك، ولاسيما التاريخية منها، ليست بشرية إنسانية وإنما تمثل صورة الإنسان الكامل المتفوق أو "السوبرمان" بحسب نيتشة، أما الأنموذج السياسي فأنت لا تملك الحق حتى في أن تكون مثله، وكل ما تبرع فيه أن تكون خاضعاً له، ومنفذاً لأوامره، مجلياً صورته إلى درجة الفناء فيه، فلا يبقى لك وجود إلا به.

إنك لا تعيش إلا من خلال الأسرة التي ولدت فيها، منها اكتسبت رؤيتك للعالم، وفي أحضانها تعلمت الفعل وردود الفعل، ومن بعد الأسرة يأتي المجتمع والآخرون، وعندما تظن أنك أصبحت رجلاً فإنك لا توجد إلا بزوجك وأولادك، وأحفادك، وأصدقائك وزملائك في العمل، وتنسى نفسك، فلا توجد إلا بهم ومن أجلهم، يتحكمون هم في كيفية وجودك، ويرسمون لك مشاعرك، ويحددون لك أوقات فرحك وحزنك، وسعادتك وبؤسك، وقد أضيف إلى هذا كله ما هو أدهى وأمر، مما لا تستطيع الهرب منه، ألا وهو المحطات الفضائية التي تدخل إليك في عقر دارك، حيث من المفترض أن تجد الأمان والراحة، وأن توجد بمعزل عن التأثيرات السلبية التي تمارس ضدك طوال اليوم، فترى نفسك خارج ذاتك تعاني القهر من الأخبار السياسية المحيطة بك وبأمتك، كما تعاني شعوراً بالعجز والتقصير إزاء ما تقدمه لك بعض المحطات الدينية من نماذج مثالية للحياة والسلوك، وأنت في كل هذا تخرج من تشتت إلى ضياع،

ومن عجز بالقوة إلى عجز بالفعل. والواقع أن ما أنت فيه ليس مسألة شخصية وإنما هي قضية حضارية واجتماعية عامة، فالمجتمعات التي يسود فيها نظام التقليد مجتمعات متخلفة في كل جوانب الحياة، وهو نظام يتأسس على تقليد القديم انطلاقاً من أنه هو النموذج الأفضل للاتباع، وقد تجسد هذا المبدأ بعبارة "السلف الصالح". ولو أن هذا التقليد كان حيوياً قائماً على معرفة بجوهر ما كان يفعله السلف الصالح وليس استنساخاً، لكان التقليد مشروعاً ، وبخاصة أن الثقافة العربية الإسلامية تقوم على أسس مشتركة تعود إلى نظرية معرفية واحدة ذات أصول مشتركة هي العقيدة الإسلامية.

إن مراقبة حركة التاريخ الإنساني تعلمنا أن التاريخ لا يصنعه إلا الرجال المبدعون، وهم دائماً كانوا من أولئك المتميزين الذين لا يقبلون النظام الاجتماعي القائم على التقليد ويعيدون النظر فيما ورثوه منه، ويوجدون بذواتهم وليس بغيرهم، فيجددون لأمتهم دينها كما ورد في الحديث الشريف، ولا يكونون إمعة يقولون ما قاله الناس.

أعد النظر في وجودك، وانظر ما أنت عليه في الحقيقة، منطلقاً في هذا من أنه ليس لك شبيه في الكون، فأنت كائن كوني، خلقت فرداً متميزاً، وأعطيت كل ما تحتاجه لتكون كذلك، فلا تتنازل عن حقك بالتميّز لأنه عين وجودك. واعلم أنه ما من أحد في الوجود يعيش بالنيابة

عنك أو يموت ويدفن ويبعث ويحاسب بدلاً منك. فكن أنت عينك، ولا تكن غيرك، لأن هبة الحياة لن توهبها مرة ثانية، ولأن يوماً ما تعيشه لن يكون له غد بالنسبة إليك.

إن ما تقدم لا يعني على الإطلاق أن تتخلى عن حياتك، وإنما يعني أن تكون أنت الفاعل فيها، المختار بعد معرفة عين وجودك، وإدراك وظيفتك في هذا الوجود، وأن تتوقف عن ترداد مقولة: "حط راسك بين الروس وقول يا قطّاع الروس"، وتذكر دائما أن الأكثرية ليست دائماً على حق، بل هي في أغلب الأحيان على باطل بحسب وصف الله تعالى لها في القرآن الكريم، في قوله عز وجل: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [1]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [2]، فقد بينت هذه السورة طبيعة النظام الإلهي في الوجود الإنساني، إذ نسي الإنسان أصل نشأته، وابتعد عن أداء وظيفته التي خلق من أجلها وهي العبودية والاستخلاف، كما نسي يوم أشهد على نفسه وأقر بأن الله ربه، وكانت نتيجة هذا الضياع والضلال والوقوع بالخطيئة، والخسران. فاحرص على

---

[1] الأنعام/١١٦
[2] العصر.

أن لا تكون من هذه الأغلبية، التي حددتها "ال" الجنسية في قوله "الإنسان"، إذ دلت على جنس الإنسان مطلقاً، وكن من الأقلية التي استثنتها السورة في قوله سبحانه: "إلا الذين آمنوا"، لتخرج من جماعة الخاسرين في الدنيا والآخرة، فتؤمن، وتعمل صالحاً، ولا تفرق بين الإيمان والعمل، لأنهما صنوان لا يفترقان، فلا دليل على الإيمان إلا العمل الصالح، ولا قيمة لهذا العمل إلا إذا اقترن بالإيمان. واعلم أنك إذا ما كنت كذلك في وسط غير فاضل، يسود فيه الإنسان الخاسر، ويحكم، فإنك ستلقى عنتاً وظلماً ومقاومة وحرباً من هذا الوسط، ولابد للتمكن من الاستمرار في العيش فيه من أن تكون مع غيرك ممن هو مثلك، تتواصيان بالحق، بحسب السورة، فيذكرك به إن نسيت وضعفت، وتذكره به، ولا بد لفعل ذلك والثبات عليه من الصبر والتواصي به، لأن المعاناة في هذا الوسط سوف تكون مستمرة. فاحرص على أن تكون واحداً في المليون، ولا تكن واحداً من مليون.

هذا هو النظام الإنساني الذي تخضع له، وهو مصدر التفاضل بين إنسان وآخر، ولا تظنن أنك قادر على تغيير هذا النظام، لأنك لو فعلت لأصبت باليأس من الناس، وهنت ووهنت وضعفت واستسلمت وتخليت. إن استطعت أن تغير نفسك فأنت بطل، ويمكنك عندها أن

تدعي مقدرة على تغيير الآخرين، وإن لم تستطع ذلك، فلن تكون إلا كذاباً يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين.

تلك هي المسألة التي يطرحها هذا الكتاب، إنها مسألة أن تكون أو لا تكون. وهي مسألة حضارية ثقافية بقدر ما هي فردية ذاتية. وهي أم المسائل التي تنظر إليها في كل يوم، وتحيط بك من غير أن تشعر، وتعاني آثارها في كل صغيرة وكبيرة في حياتك اليومية، في البيت ومع الأسرة، كما في المجتمع والعالم. وقد اهتم الكتاب بثلاثة محاور تشكل في مجموعها تلك المسألة، وتحدد كل ما يتفرع عنها من مسائل وجودية. المحور الأول هو الذات من حيث مفهومها وضرورة العودة إليها بعد غربة طالت عنها، والثاني هو مسألة الزمان المنقسم على نوعين: مطلق ومقيد، وهو محور ضروري لتحديد مكان الذات في الوجود المادي، وربطها بزمان هي فيه وآخر تنتمي إليه، وهي لا تستطيع معرفة معنى وجودها من غير أن تدرك طبيعة هذا الوجود. أما المحور الثالث فهو نتيجة مترتبة على المحورين السابقين، ولا يمكن فهمه إلا في إطارهما، فهما أصل له، إذ لا يمكن للمرء أن يفكر في مسألة الحرية في الوجود إن كان لا يعرف مفهوم كل من الوجود و الزمان اللذين ينتمي إليهما.

وبعد، فليس هذا الكتاب درساً في الفلسفة المجردة، كما أنه ليس نتيجة تأملات عقل منعزل يعيش في برج عاجي كما يمكن أن يُتصور من

بعض العقول المادية أو العلمانية، وإنما هو دعوة إلى التجدد والتجديد، في زمان يقر فيه الجميع بسوء الحال وظلام المآل، وترتفع فيه الأصوات بالشكوى والأنين من هذه الحال، حتى طغى على أكثر الناس اليأس والتشاؤم وعدم الجدوى، وغلب عليهم شعور بالإحباط فاستسلموا، وغابت عنهم روح التفاؤل والمقاومة، واختفى من بينهم الإبداع. إلاّ أن نور الأمل لا يطفأ، وهو ما يزال ينير قلوب كثيرين، والنصر قادم لا محالة، والمسألة اليوم تتلخص في إعداد النفس للمشاركة فيه، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

حلب في ٢٢/ آب / ٢٠١٠

أ. د. حسين الصديق

الفصل الأول

العودة إلى الذات

١ - مدخل

٢ - مفهوم العودة

٣ - مفهوم الذات بين الفرد والأمة

٤ - إلى أي ذات تعود؟

٥ - كيف تعود؟

لطالما بهرتني كلمة سقراط "اعرف نفسك"، ولطالما كنت أرددها على مسامع أصدقائي، ومازلت اليوم أكررها أمام طلابي. إلا أنني لم أفكر، في يوم من الأيام، كيف يمكن تحويل فعل الأمر هذا إلى فعل ماض، أو مضارع، حتى طرح علي طالب منذ بضع سنوات السؤال التالي: كيف يمكن أن أعرف نفسي؟

هذه الدراسة ليست في الفلسفة كما قد يمكن تصنيفها! كما أنها ليست في السياسة أو الدين أو الثقافة، إنها في الإنسان، وهو اختصار كل تلك التحديدات. إذ إنه هو صاحب الحياة ومحركُها، وهو في الوقت نفسه عضوٌ فيها، ولعلّ إهمالَ الإنسان أو نسيانَه، في الدراسات العربية المعاصرة، هو الخطأ الذي نتجت عنه كل الأخطاء التي وقعت فيها هذه الدراسات عندما قررت له كيف يجب أن يعيش؟ وماذا يجب أن يلبسَ، وكيف يفكر، وما الثقافة التي عليه تبنيها، وماذا يتعلم وكيف؟ وما السبل التي عليه المضي فيها؟ وقررت له أيضاً متى بإمكانه أن يتزوج، وكيف يربي أولاده؟ ولكنها نسيت أن تعرف من هو، ولماذا هو موجود، وما الثقافة المحركة له في حياته، وما مفهوم الحياة بالنسبة إليه؟ وباختصار، لم تهتم بمعرفة ماهيته، وهل يناسبه ما قررته له، بل إنها ،على العكس من ذلك، عملت

على تشكيكه في ذاته، وجهدت في محو هويته، وقامت بجهود حثيثة دعته فيها إلى ذات جديدة من خلال ثقافة غريبة عنه، فأصبح غريباً في عقر داره.

هذه الدراسة للإجابة عن السؤال الذي أُنسيناه: من نحن؟ ولماذا نحن؟ وكيف يمكن أن نكون نحن؟ وأعتقد أن السؤالَ ملحّ، والإجابةَ عنه أكثرُ إلحاحاً لأننا طالما ترددنا، منذ قرن ونيف، بين أن نكون وألا نكون. إلا أننا منذ العقد الأخير عقدنا العزم على أننا لسنا، وأننا يجب.

العودة إلى الذات عنوان موحٍ ودالٌ في الوقت نفسه، وهو محور هذه الدراسة. أردت بالعودة أننا اليوم مغرّبون عن ذواتنا، وأنه آن أوان العودة، بل لعل هذه العودةَ ليست اختياراً وإنما هي اضطرارٌ فرضته علينا نتائجُ هذا التغريب، وهي نتائج متفق عليها بين أفراد الأمة بالإجماع تقريباً، لأنه يجب ألا ننسى، دائماً، أنه سيظل في هذه الأمة نفر ضُلل، وأصرَّ على ضلاله لأسباب كثيرة ومتنوعة.

وإذا كان أغلبيتنا متفقين على ضرورة العودة، فإنّ أكثرنا لا يعرف إلى أين يعود، وما الذات على الحقيقة؟ وأي الذوات نقصد؟ وهل هي ذات واحدة أم متعددة؟ أمّا آليات العودة فهي في اعتقادي الأكثر صعوبة في التحديد وفي التحقيق، لأن التسليمَ، في نهاية المطاف، بضرورة العودة والاتفاقَ على تحديد الذات المقصودة سيبقى في إطار الفكر النظري، على

حين أنَّ آليةَ العودة، وسبلَ تحقيقها إنما هما فعل يحتاج من صاحبه إلى جهد كبير، يقوم على الوعي والإرادة لديه على السواء.

لقد استطاع العنوان ببساطة أن يحدد أقسامَ هذا الفصل وخطواتِه، سيخصص أول هذه الأقسام للبحث في مفهوم العودة وتاريخيتها، والظروفِ التي أدت إلى ضرورتها، على حين أن القسم الثاني سيبحث في مفهوم الذات بين الفرد والأمة، وعلاقة هذا المفهوم بالثقافة الاجتماعية وذاكرتها التاريخية. أما القسم الثالث فهو لتحديد مفهوم الذات الذي تتبناه الدراسة. والقسم الرابع والأخير سيكون للخطوات العملية المقترحة التي تساعد على تحقيق تلك العودة.

مفهوم العودة

العودة تعني أنك تملك مكاناً تعود إليه بعد فراق، أو اغتراب، أو ابتعاد عنه، وهي هنا تقابل الاغترابَ، أو التغريبَ. فمن جرّب الغربةَ المكانيةَ يبقى فيه حنين إلى الوطن، ونزوع إلى البيت الذي ولد فيه، لا يفارقه حتى الممات. ومن لا يعي أنه غريب لا يفكر بالعودة إلى وطنه. ولعلّ أغلَبنا، في القرن العشرين، لم يكن يدرك أنه مغرّبٌ، لأن الغربة الجسديةَ المكانيةَ يدركها جميعُنا، ويعاني منها، على حين أنه من الصعب إدراكُ الغربة عن الذات، لأننا نعيش بالجسد أكثر مما نعيش بالعقل والقلب. وقد مر زمن

طويل على أمتنا، في العصر الحالي، لم تدرك فيه أنها مغرّبةٌ، وما كانت تشعر بضرورة العودة إلى الذات، باستثناء نفر قليل من الواعين من أبنائها، لم تستجب لهم، أو لعلها شُجعت على المضي في غربتها من خلال وسائل كثيرة مادية وفكرية.

وتعود مرحلة التغريب في الأمة العربية والإسلامية إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها في النصف الأول من القرن العشرين. وكان من أبرز عوامل انتشار التغريب في العالم العربي والإسلامي العاملُ البشريُ، فالإنسان بطبعه يميل إلى الحياة المادية والمبالغة في الرفاهية والترف ومتع الحياة. وقد استغَل هذا العاملَ عاملٌ آخر خارجيٌ، تمثل في سعي الغرب الأوروبي للسيطرة على الشرق، وبخاصة المسلم منه، والحفاظ عليه متخلّفاً ضعيفاً، ليتمكن الكيان الصهيوني الذي زرعه في قلب الشرق المسلم من البقاء. وقد اعتمد هذا العاملُ، في استغلال العامل البشري، على عاملين داخليين اثنين هما: سياسيٍ، تمثل بمجموعة من الساسة، والأحزاب، والأنظمة السياسية، أفرز مجموعة من القوانين صُنعت على هوى الغرب، لتنفذ ما يريده من هذه الأمة، وبها، وذلك بمساعدة العامل الداخلي الثاني، الذي تمثل في غالبية مثقفي الأمة، من الذين صُنعوا على يد الغرب وثقافته، يدعمهم رأسماليون تابعون في غرائزهم المادية لمصالحهم في الربح، ويضاف إلى هؤلاء بعضُ الأقليات

الدينيةِ، والماسونيةِ، وجماعات المبشرين، وأعضاءِ السلك الدبلوماسي الأجنبي في البلاد الإسلامية، ومراكزهم الثقافية، ويضاف إليهم، أخيراً، السياح.

وعمل السياسي والثقافي على ربط نظام التعليم في البلاد العربية والإسلامية بالغرب، فأصبح هدفُه إنتاجَ أفرادٍ قادرين على سد الفراغ الوظيفي والإداري في الدولة، ولم يعد يهتم بالنضج المعنوي والروحي للأفراد، وبخاصة بعد أن فصل بين التعليم الرسمي والدين. وقد استعان السياسي والثقافي، في سبيل ذلك، بالصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح والأدب. فكان كلُ ما في الأمة، من عناصر فاعلةٍ، وقوى داخليةٍ، ماديةٍ ومعنويةٍ، موجهاً في الأغلب في خدمة التغريب.

وقد انعكس التغريب، في الواقع، لدى أغلب الحكام والمثقفين في صورة تقليد حرفي للأفكار والمفهومات الغربية، وتجسد من خلال إجراءاتٍ اقتصادية وثقافيةٍ واجتماعية وقانونيةٍ، على طريق التبعية للغرب. وعلى مستوى المجتمع برز هذا التغريب في الحياة اليومية للناس، في ملبسهم، وزينتهم وتقاليدهم الاجتماعية التي كانت في معظمها تقليداً مبتذلاً لتقاليد الغرب وأنماط حياته وأنواع سلوكه.

وأدى هذا التغريب إلى نتائج وخيمةٍ على مستويي الحكام والمثقفين من جهة، والناس من جهة ثانية. ولكن تغرُّبَ معظم الحكام والمثقفين ذا البعد الفكري كان أشد خطورة من تغرُّبِ الفئة الثانية الذي انحصر في الاستهلاك. إذ إن هؤلاءِ الحكامَ والمثقفين يمثلون فكر المجتمع وإرادتَه، وعندما يشُلُّ الفكرُ والإرادة يشُلُّ الجسدُ، وهذا ما قاد الأمة الإسلامية إلى كارثة وطنية وقومية، وشللٍ اجتماعي حادٍ، جمّد كل ما تملكه هذه الأمة من قدرات إبداعية ذاتية.[١]

كان المتغربون يفتقرون كثيراً إلى أية حيوية فكرية أو اجتهادية أو ابتكارية، وكانوا يكتفون باجترار أفكار الغرب، دون هضمها أو فهمها،[٢] وهو ما أنتج خوَاءً في الشخصية وضبابيةً في الهوية. وتحولوا إلى مقلّدين محتاجين إلى غيرهم، وتابعين له، وحقراء أذلاء أمام متبوعيهم، يسخر بعضهم من ثقافة مجتمعه ودينه، ويمجد أسياده من الغربيين، وهم بذلك يخدمون الاستعمار، ويسوغون موقفهم بترديد ما يردده أسيادهم من أنّ الثقافة والحضارة إنسانية واحدةٌ، هي ما عند الغرب، ولا بد لمن يريد التحضر من قَبُول ما عند الغرب، وإلا فهو متخلف.

---

[١] شريعتي، د. علي، **العودة إلى الذات**، تر: إبراهيم الدسوقي شتا، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، ٢٠٠٢، ص/ ١٣٠.

[٢] النقوي، د. علي محمد، **الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي**، تر: عبد الكريم محمود، طهران، ١٩٩٧، ص/ ١٢٦.

العودة إذن هي دعوة إلى العودة من التغرب إلى البيت، بعد طول تشرد في الطرقات، ونوم على الأرصفة من غير غطاء. هي عودةٌ إلى ترك الديانات التي بشّر بها أساتذة جامعيون، ومثقفون حزبيون، طالما احتكروا الوصاية على أمتهم، داعين إياها إلى هجر ثقافتها، وتغيير شخصيتها، واستبدالها بما اختاروه لها من ثقافة أعدائها التاريخيين.

والعودة إلى الذات فكرة عمّت جميع البلدان التي كانت تخضع للاستعمار الأوربي، وتعرضت لهجمات الثقافة الغربية، وهي في البلدان الإسلامية بدأت في نهاية القرن التاسع عشر، أي مع بداية التغريب، فرجالٌ مثل جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، ومحمد إقبال، وأبو الأعلى المودودي، وكلهم ممن عرف الغرب وثقافته معرفة جيدة، جهدوا في الوقوف أمام التغريب، ودعَوا الأمةَ إلى العودة إلى ذاتها. ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام المد التغريبي الذي دعمه الغرب من الخارج بوسائل من الداخل.

وبعد مرور قرن ونيّف، كانت فيها تلك الدعوة محاربة ولكنها مستمرة، وإن كان ذلك بوهن، لم يرض الغرب عن نتائج جهده وأعوانه في تغريب الأمة، إذ رأى أن نهاية القرن العشرين شهدت نتائج عكسية، وردودَ فعلٍ حادةً ضد التغريب، فلم يعد يكتفي بالعمل من وراء أكثر الحكام والمثقفين، الذين لم يعد لهم ما يوارون به غربتهم عن أمتهم، كما أنهم باتوا

عاجزين عن إصلاح ما أفسدوه من العلاقة بينهم وبين شعوبهم، حتى أصبحوا، في أغلب الأحيان، أعداءَ أمتهم، وإنما جاء بكل قُواه وجبروتِه ليدمر كل ما استطاعت بناءه جهودُ أبناء الأمة المخلصين من السياسيين والمثقفين على السواء، وليفرض إرادته بالسلاح، بعد أن فشل في فرضها عن طريق التغريب. ومنذ عقدين ونيف من الزمان يصحو الناس، ويتلاشى الشك في عقولهم، ويحُل محله اليقين بضرورة العودة إلى الذات.

إن أبرز العوامل المساعدة على تلك العودة هي النظام الحيوي للثقافة الإسلامية الذي استطاع أن يقاوم كل الجهود التغريبية، فالأديان في العالم هي أديان روحية، تهتم أساساً بعلاقة الإنسان بالإله، أما الإسلام فهو يجمع إلى هذا نظاماً اجتماعياً شاملاً للحياة الإنسانية، ولا يترك فراغاً تسده الأنظمة أو المذاهب الفكرية الوضعية. ولهذا جوبهت الثقافة الغربية بمقاومة شديدة في البلدان الإسلامية، ولم تجد هذا في اليابان أو الهند الصينية، أو إفريقيا. فالإسلام ليس مجموعةَ معتقداتٍ لاهوتيةٍ، وطقوساً دينية فحسب، بل يشمل كل أبعاد الحياة الإنسانية.[٣]

أضف إلى ذلك ما شهده القرن العشرون، وبخاصة النصف الثاني منه، من سهولة انتشار الأفكار بفضل سهولة الطباعة والتوزيع، ودخول وسائل

[٣] النقوي، **الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي**، ص/ ١٤١-١٤٢.

الإعلام المرئية والمسموعة، وهي أوربية، إلى كل بيت، إلا أن أبرزَ تلك العوامل هو أثرُ نتائج التغريب الكارثية في الدولة، والثقافة، والمجتمع.[٤]

العودة إلى الذات هي الحل الأمثل بالنسبة إلى كل إنسان يعاني مشكلات في علاقته مع الواقع، فإذا انطلق الفرد من الذات، وقام بتصحيح علاقتِه بها بعد تغريبه عنها وجهله بها، فإن علاقته بباقي مفردات الوجود سوف تغدو أفضل، إذ إن العلاقة بين الفرد والآخر ما هي إلاّ صورة العلاقة بين الفرد وذاته. وعلاقة الأمة بالأمم الأخرى إن هي إلاّ صورة علاقتها بذاتها.

مفهوم الذات بين الفرد والأمة

ذات الفرد أو شخصيته هي مجموعة الآليات التي تنظم حياتَه وعلاقاتِه بالآخر وبالطبيعة وبالله. وبناءُ الذات عند كل فرد يقوم على السمات الجوهرية الخاصة بثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه. وعلى هذا فالثقافة هي نظامُ القيم الأساسية الجوهرية في المجتمع. والذات أو الشخصيةُ أو الأنا أو الهوية، هي صورة مصغرةٌ عن هذه الثقافة أو هي مستودع لها. وثقافة

[٤] المصدر السابق.

الفرد، التي تشكل ذاته وشخصيته هي جزء من الثقافة الاجتماعية، وهي أيضاً ما نسميه بالهوية.[٥]

وتركز الدراسات الاجتماعية المعاصرة على قدرة المجتمع على نقل ثقافته من جيل إلى آخر، وتَعُد ذلك مصدرَ صحة المجتمع، وضمانَ سلامة استمراره. وكل مجتمع يسعى دائماً إلى تشكيل بِنيَة ثقافيةٍ أصيلة، يحرص على ألا يخرج عليها أحدٌ من أفراده ضماناً للوحدة الاجتماعية الداخلية، فوظيفة الثقافة الاجتماعية إنما هي تحقيق التوازنِ والتناغمِ بين أفراد المجتمع، ولا يكون ذلك إلا عندما تتمكن، هي ذاتها، من تحقيق التناغم والتوازن بين عناصرها لتنتظم داخلياً في إطار مجموعة متوازنة من العناصر الثقافية التي يحيا فيها الفرد من جهة، وتشكل مرجعيته ومعياره في التعامل مع الأشياء والحكم عليها من جهة أخرى. وأي خلل في النظام الثقافي يؤدي بالضرورة إلى قلق في حياة الفرد، واضطراب في أحكامه، ينتج عنه فوضى في العلاقات وشللٌ في القدرات وضمورٌ في الإبداع.

لا فرق، إذن، بين الهُوِيَّة والذات والثقافة على مستوى الفرد، كما أنه لا فرق بينها على مستوى المجتمع والأمة. فثقافةُ الأمة هي التي تحدد معنى الوجود الإنساني، وتمنح الإنسانَ شعورَه بالأنا، من خلال انتمائه إلى مجموعة ثقافية. إنّ ثقافةَ الفردِ تتشكل جوهرياً في ذاكرة الأمة، وهي التي

---

٥ **Dictionnaire Critique de la Sosciologie**. P.U.F. Paris, 1982. P/ 133

تعلمه من خلال مخزونها الثقافي كيف يتصرف، وتحدد الفعل وردَ الفعل لديه، وهي بالتالي التي تحدد شخصيته أو ذاته أو هويته. والأمة تماثل الفرد في ذلك، فإذا كانت ثقافته هي شخصيتُه فإن ثقافة المجتمع هي شخصيةُ هذا المجتمع وذاتُه أيضاً.

إنّ الإنسان يعيش بين ماضٍ وحاضر ومستقبل، وهو في الحقيقة لا يعيش إلا في الماضي، فهو يتصوّر المستقبل من خلال تجاربه المتراكمةِ في الماضي، ويعيش الحاضرَ، ويفسّرُه، من خلال تجارب الماضي. كما أنّ الحاضرَ لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يعاش، ليصبح ماضياً نعيشه من خلال الثقافة المتراكمة في الذاكرةِ مستودعِ تجارب الإنسان وقوام شخصيته. وإذا فُصل الحاضرُ عن الماضي فإن الحاضرَ ينهارُ، إذ إنّ وجود الحاضرِ يقتضي وجودَ الماضي، فنحن نفهم أنفسنا من خلال الماضي، أما المستقبل، ويدخل فيه الحاضرُ القريبُ قبل عيشه، فإننا لا نتصوره إلا بمساعدة جهد خيالي، إذ لا دليل على وجوده، وهو قد لا يوجد بالنسبة إلينا كأفراد، بالموت، فالماضي موجود في الحاضر، بل إنّ الحاضر هو امتداد طبيعي للماضي أو للتاريخ.

الثقافة إذن هي الذاكرةُ، ومن لا ذاكرةَ له لا هويةَ له ولا شخصيةَ ولا ذات. وثقافةُ الأمة ذاكرتُها وذاكرتُها هي التاريخُ، كما أنّ تاريخ الفرد هو ذاكرته، والثقافة الاجتماعية لا تظهر من الفراغ، وإنما هي مجموع تراكمي

انتقائي لخبرات عدد ضخم من الناس، عاشوا في عصور متلاحقة تمتد عمقاً في التاريخ.

إلى أي ذات تعود؟

لا بدّ من العودة إلى الذات بعد التغرب عنها، ولكن أي ذات نقصد؟ وما حدها؟ وما مقوماتها؟

يمكن الإجابة عن السؤال بتقرير كليةٍ هي أنّ كل جزئية في الوجود تحتاج في تفسير وجودها إلى كلٍّ تنتمي إليه بالضرورة. وإهمال هذا الكلِّ أو نسيانُه سوف يجعل هذه الجزئية من غير تفسير، لأن أي تفسير لوجودها لن يكون صحيحاً إلا إذا انطلق من الكلِّ الذي تنتمي إليه. ولا شك في أنّ تعدد الكليات في تفسير الذات، وهي جزء من كل، يؤدي إلى عدم انسجام بين الفرد والفرد في المجتمع خاصة، وبين الأفراد والمجتمع عامة، وهو ما ينتج عنه خللٌ في الأحكام وقلقلةٌ في العلاقات وضبابيةٌ في الوعي وضمور في الإبداع.

العودة إلى الذات هو طرحٌ فلسفي إنساني، يتفق فيه المتدينون مع الإنسانيين والعلمانيين، لأنّ الجميع يسلّمون بأن الذاتَ هي الثقافةُ التي تربت فيها هذه الذات، أوهي الكليةُ التي تنتمي إليها هذه الجزئية. فالعودة إلى الذات إنما هي عودة إلى الثقافة التي نشأت فيها الذات، وليس الثقافة

التي فرضت عليها من خارج، كما أنها عودةٌ إلى الكلّ الذي هي جزء منه، وصدرت عنه[٦].

ولمّا كان وضعُ الذات العربية بخاصة على ما قدمناه بشكل عام، من تعرض لهجمات الثقافة الغربية منذ ما يزيد على القرن، فإنّه من الصعب اليوم أن ننطلق في دعوتنا من الذات العربية المعاصرة التي لم تعد تحافظ على نقائها الأول، ولا بد لنا من إعادة النظر في ما هي عليه من خلال الاعتماد على الكلية الأولى التي تؤسس هذه الذات.

من المعلوم أنّ الثقافة العربية المعاصرةَ هي خليطٌ عجيبٌ من ثقافةِ الأمة المرتبطة بذاكرتها والمتمثلة في قيمها وعاداتها وتقاليدها المعيشة، وكمٍ غيرِ متجانس من الثقافات الأجنبية وعلى رأسها الأوروبية الغربية والأمريكية.

ولا بد، لكي تتمكن الأمة اليوم من العودة إلى ذاتها، من الاحتكام إلى معيار هو ثقافتها الأصيلة، لنتمكن من الحكم على ما وردها من ثقافات غريبة عنها، فما انسجم منها مع تلك الثقافة قبلناه، وما لم ينسجم وجب رده وطرحه، حتى تنقى الثقافةُ العربية المعاصرةُ، وتَنقى بنقائها الذاتُ، فتعود إليها ثقتُها بوجودها، وتتفتقَ قدراتُها من جديد.

إنّ دارس الحضارات الإنسانية يلاحظ أنّ ثمةَ مفهومات ثلاثة تؤسس كل الحضارات الإنسانية، هي الإله والإنسان والكون. وبحسب نسبة تغليب

---

[٦] شريعتي، **العودة إلى الذات**، ص ٣٣.

واحد من هذه المفهومات تكون سمة الحضارة، فهي إما حضارةٌ إلهيةٌ يفسّر أبناؤها مفهوم الإنسان والكون من خلال مفهوم الإله، وإما حضارة إنسانية يفسر أصحابها مفهومَ الإلهِ والكونِ من خلال مفهوم الإنسان، وإما حضارة طبيعية أو مادية يفسر أصحابها مفهومي الإلهِ والإنسانِ من خلال مفهوم الطبيعة وبحسب قوانينها.

والثقافة العربية الإسلامية هي نتاج حضارة غلّبت مفهومَ الله، ففسرت مفهومي الإنسان والطبيعةَ من خلال وجودِه سبحانه وتعالى. وهو وجود ترسمه العقيدة الإسلامية المتمثلةُ بالقرآن الكريمِ، والسنةِ النبوية. والعودةُ إلى تلك الثقافة ليست دعوة إلى الإسلام كمجموعة من التقاليد والعادات والنظم الاجتماعية، الموجودة بالفعل في المجتمعات العربية والإسلامية، بل كفكر ووعي وجودي إنساني ينطلق من مكانة الإنسان، ووظيفته في الوجود.

إن العودة إلى الذات هي عودة إلى الثقافة والهوية الاجتماعية، والثقافة الاجتماعية تمتد عمقاً في التاريخ، وتعتمد على مرجعية كلية تحكمها، هي العقيدة الإسلامية، ولا بد، لفهم الذات وتنقيتها مما شابها من كدر أصابها من هجمات الثقافات الأجنبية، من عرضها على المرجعية أو الكلية التي تحكمها.

وعلى حين أنّ الذات عند الأمم الأخرى مؤسسة على ثقافة مدنية إنسانية، يمكن استبدالها بثقافة أخرى، وإن كان لهذا تأثيرٌ سلبي، فإن الذات العربية تستمد هويتها من الثقافة العربية التي، لارتكازها على العقيدة الإسلامية، لا يمكن استبدالها بثقافة أخرى، وأي محاولة في هذا الاتجاه تؤدّي إلى نتائج سلبية ذاتِ أثرٍ عميق في قدرة مجتمعاتها على الإبداع. فالعقيدة الإسلامية تشكل مجموعة من النظم المتعددة المحيطة بالوجود الإنساني في إطار الكون الطبيعي والإنساني، والذات التي تدعو إليها هذه العقيدة هي، أولاً، وعي الوجود فرداً مندمجاً في العالم ومتوحّداً به بحثاً عن الأصالة الذاتية المتفردة والمتميزة، المبدعة في إطار الجماعة والأمة، وتحقيقها على مستوى الفعل. وكل فرد مسلم إنما يعرف ذاته ويحقق وجوده من خلال عدم الفصل بين العلم والعمل، لبناء العالم، والسعي لجعله أفضل في كل المجالات، تحقيقاً لسعادة الإنسانية ونفياً للظلم والاستغلال والجشع، منسجماً في هذا مع النظام الكوني في الأرض وسننه الإلهية، ومحققاً لوظيفته التي خلق من أجلها في العبودية والاستخلاف.

وقد ألح المفكرون المسلمون على ضرورة إقامة الوحدة الاجتماعية على أساس إدراك الذات، ووعي تفردها ومكانتها السامية في الوجود الذي لم يكن إلا من أجلها، على الرغم من التعدد العرقي، والثقافي، والديني، الذي كان يشكل المجتمعات الإسلامية. وما ينظُمُ هذه الوحدةَ هو

اشتراكُ جميعِ المسلمين بلفظ الشهادة التي تجسد ارتباط وجود الفرد والأمة بالله عزّ وجل. فلفظ الشهادة هو تأكيدٌ على وجود الله، كما أنه في الوقت نفسه تأكيد على وجود الفرد، القادرِ على الحكمِ، العارف بذاته مستقلة عن الله وعن الكون. فعندما يشهد المسلم بوحدانية الله، فإنه يدلل بشهادته تلك على قوة المعرفة وقوة الحكم الناتجتين لديه عن معرفة الذات وإدراك قدرتها على المقارنة بين الذات البشرية والذات الإلهية. فكأن المسلمَ يقول لله: أنا أشهدُ بأنك إلهٌ فردٌ، واعترافي بك إلهاً دليلٌ أكيدٌ على وجودي، إذ لو لم أكن موجوداً وقادراً على المعرفة والحكم لما شهدت بذلك، فوجودي دليل على وجودك، كما أنّ وجودك دليل على وجودي.

فالشهادة ذات قطبين: عندما يرددها المسلم فإنه يؤكد وجودَ الله، وهي نفسها تؤكد وجوده الذاتي، فهي علاقة جدليةٌ متصاعدةٌ لا متناهيةٌ، بين المتسامي والمهيمن، والمُحدَث والقديم، والمقيد والمطلق، والإنساني والإلهي.[٧] يعي الإنسان الفرد ذاته في أول الشهادة وفي آخرها، إذ إن قيمة وجوده تكمن فيها، فهي تبدأ بوعي الذات قبل وعي الوجود الإلهي بفعل "أشهد"، الذي يدلل على وجود الشاهد وقدرتِه على الوعي والإدراك والحكم المؤكد بلفظ "أن لا إله إلا الله"، حيث يأتي الوجود الإلهي بعد الوجود الفردي ليكون دليلاً عليه. وهو دليل معكوس، إذ لو لم يكن

---

[٧] Lahbabi, Mohamed Aziz, **le Personalisme Musulman.** P.U.F. Paris, 1964, P/22

للإنسان ما يشهد بوجوده لكان وجوده معلقاً لا يمكن إثباته، ولنفى هذا وجودَه، وبخاصة أن ما يشهد الإنسان بوجوده هو وجود واجب مطلق ليس كمثله شيء، فالإنسان جزء من مفردات الكون الواسع، ولا بد لتفسير وجوده من كلية كبرى يقيس وجوده عليها. وقد كانت هذه الكلية متعددة في تاريخ الإنسانية حتى اكتشف الإنسان الله في ذاته، وبمساعدة الأنبياء، فعرف أنه موجود بوجوده، فأقر بذلك في الشهادة.

والشهادة لا تبني علاقة خاصة بين الفرد والله فقط، وإنما هي تؤسس علاقة اجتماعية بين "الأنا" و"الهو"، وبين "الأنا" و"النحن"، لأن "الأنا" والآخرين يشاركون جميعاً في الشهادة ذاتها، فهم يتمحورون في شهادتهم حول الكلية عينها، محققين بذلك وحدة اجتماعية ولحمة إنسانية في المجتمع الإنساني، تتجسد في انسجامِ وجود الفرد وسلوكهِ مع الآخرين، حتى في أشد الظروف التي عاشتها المجتمعاتُ الإسلاميةُ صعوبة في التاريخ.

إنّ الذات عند الفرد المسلم تتجسد في قدرته على التنسيق بين فعله وفعل الآخر، من خلال الوجود المطلق للذات الإلهية. ولكنّ العلاقة بين الفرد والآخر يجب أن تقوم على المعرفة التي تلح عليها العقيدة الإسلامية، محرضةً أداتَها العقل على التفكير في كل مفردات الوجود وعناصرِ الكون. ولعلّ ابتعادَ المسلمِ عن المعرفة ووقوعَه في التقليد في الشهادة، وما يتلوها

من عبادات، سلبه حريته التي اكتسبها بعبوديته الحقة لله شرطِ تحقيق معنى استخلافه في الأرض، فأصبح اليوم ليس مستقلاً حراً تماماً من الوجود الإلهي كالماديين، وليس عبداً لله كما أرادته العقيدة، وبات متقلقلاً بين الحالين، لا يبرح مكانه، كعربة تشدها أحصنة في اتجاهين متعاكسين. إنّ قراءة تاريخ أمتنا تكشف عن أن كل الأفعالِ العظيمةِ، في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، ارتبطت في أذهان أصحابها برغبتهم في معرفة الله و نيل رضاه و الإحسان إلى عياله، كما تؤكد أن هذه الأمة كانت تقترب من الإبداع في كل المجالات وتبتعد عنه بحسب قربها أو بعدها عن تحقيق تلك المعادلة.

إن هذه المعرفة الذاتية تتجسد في الصلاة في مقابل الله المطلق، إذ لا يكتفي المسلمُ بالشهادة في قلبه أو على لسانه، بل يؤكد وجودَه عندما يقف أمام الله وجهاً لوجه، ليقول له جوهراً وعرضاً: إنني موجود أمامك وفيك، وقادر على الحركة منك وبك، فأنا خليفتك في الأرض، منحتني القدرة على الفعل، ففعلت، لأحقق استخلافك لي فأشعر بالتفرد في هذا الكون.

يقول الإنسان، بحسب محمد إقبال:[٨]

أنت خلقتَ الليلَ، وأنا صنعت المصباحَ

أنت خلقتَ الطينَ، وأنا صنعت الكوبَ

[٨] رسالة من الشرق، نقلاً عن المصدر السابق، ص ٧٣.

أنت خلقتَ الصحارى، والوديانَ، والجبالَ،

وأنا أبدعتُ الرياضَ، والبساتينَ، ومزارعَ الوردِ،

إنه أنا الذي أخرج الزجاج من التراب،

والترياق من السم.

إنّ وعي الفرد المسلم يشكل حركة دائرية تبدأ، هبوطاً، من المطلق إلى العالم الكبير ومن ثم إلى العالم المتناهي في الصغر المتمثل في الفرد، لتعود، صعوداً، من الفرد إلى المطلق المتمثل بالله. إنّ معرفة الذات تمكن صاحبها من إدراك قيمتها ورسم مسارها وتحديد علاقاتها بالذوات الأخرى التي إذا ما فعلت الشيء نفسه حقق المجتمع لحمة اجتماعية متمحورة على كلية مشتركةٍ فيما بينها، ناظمةٍ لحركتها الداخلية والخارجية.

عندما يوجد "الأنا" و"النحن" فإن المجتمعَ الإنسانيَ يوجدُ، ووجودُه يعني قيامَ علاقةٍ بينه وبين الكون من جهة، وبين الفرد والفرد فيه من جهة أخرى. وهذه العلاقة هي، في الحالة المادية، صراع ينشأ عن كون الإنسان يحمل في ذاته أصول الصراع، لأنه في داخله يحمل طبيعة مزدوجة هي العَرَض والجوهر، أو النفس والجسد. وهو خاضع على الدوام للضغوطات المتولدة عن طبيعته المزدوجة. إلا أن علاقةَ الفرد بذاته، وعلاقتَه ب"النحن"، تقوم من خلال الله على سعي حثيث لتجاوز هذه

الازدواجية، التي كثيراً ما تؤدي في الواقع إلى خلل في العلاقات، وصولاً إلى وحدة في طبيعتهما وانسجام في وظيفتهما.

إن هذه الوحدة مطلوبة، وهي ضرورية لتحقيق الوحدة الخارجية مع عناصرالكون ومفردات المجتمع، ولذا فقد اقتضى أن يتدرب الفردُ على تحقيق وحدَتِه الداخلية فكانت العبادات في العقيدة الإسلامية تدريباً له على إقامة التوازن بين الجسد والذات، أو بين العَرَض والجوهر، فالوضوء حركةٌ جسديةٌ ومعنويةٌ في آن معاً،[٩] والصلاة لا تقتصر على الوقوف في حالة خشوع، من غير حَرَاك، كما في أغلب الديانات، وإنما هي حركةٌ جسديةٌ متناغمةٌ مع حركة روحية قلبية، ومنسجمة مع حركة الفلك والكون والطبيعة، كذلك الأمرُ في الحج والصيام والزكاة. وهي أركانُ الإسلامِ الخمسة إذا ما أضيفت إلى الشهادة.

وتحرص هذه العبادات على تحقيق التوازن الخارجي بين "الأنا" و"النحن"، من خلال حرصها على اجتماعية العبادات، فالجميع يشاركون فيها في أوقات محددة، والصلاة مع الجماعة أجرها أضعاف الصلاة الفردية.

إنّ الذات الإنسانية إبداع إلهي، خُلِقت لتعرف الله، وهي موصولة به مباشرة، ولا مكان لوسطاء بينها وبين خالقها ومستخلفها، وهذا ما يؤكد على رفعة هذه الذات، وسمو مكانتها في الوجود. فالله، في العقائد

[٩] المصدر السابق، ص ٢٧.

السماوية، عادلٌ، جميلٌ، يحب الإنسان، أعطى جبريلَ النورَ ليسلمه إليه، عن طريق الأنبياء، وهم من البشر، حرصاً منه عليه، وهدايةً له، ودعوةً منه للعودة إليه، على حين أن بروميثيوس، الذي سرق نارَ الآلهة في الثقافة الإغريقية أس الثقافة الغربية المعاصرة، حكمت عليه هذه الآلهةَ بالعذاب الأبدي، لأنه أعطى الإنسانَ هذه النارَ المسروقةَ التي تحرص الآلهةُ على احتكارها فلا يستفيد منها الإنسانُ لأنها مصدر قوة لا تريد أن يملكها فيتحرر من تبعيته لها وخضوعه. فالإنسانُ، في الفكر الغربي، وريث الثقافة الإغريقية، القائمة على الصراع، بين الإنسان والآلهة وما تفرضه عليه من قدر يتحداه ويرفضه، ويصارع الآلهةَ، ليحظى بوجوده، على حين أنه، في العقيدة الإسلامية، يستمد وجوده من الوجود الإلهي الرحمن الرحيم، وهو لا يضع ذاته في مقابل الذات الإلهية، أو في صراع معها، كما في الفكر الغربي، بل هو يدرك أنه منه وإليه، وعبدُه وخليفتُه ، يستمد حريتَه من عبوديته له.

لقد وحّدت الثقافةُ العربية الإسلاميةُ الكليةَ المرجعيةَ المفسرةَ لوجود الفرد، فوحّدت بذلك الضمير الجمعي عند الأمة، وأصبح الفردُ جزءاً منها، يهمه ما أصابها، أينما كان، على الرغم من الوسط غير الفاضل الذي وضعه فيه التغريب الثقافي، على حين أنّ الثقافةَ الغربية ألغت هذه الوحدةَ، فتعددت الكلياتُ بتعدد الفلاسفة وأصحابِ المدارسِ الفكريةِ،

ومفكري الأحزاب، وأصبح داروين، صاحبُ مبدأ الطبيعة، ونيتشه، صاحبُ مذهب القوة، وفرويد صاحبُ مبدأ اللذة، وماركس صاحبُ التفسير المادي للتاريخ، من أبرز الكليات المرجعيةِ المحركة للثقافة الأوروبية، والمفسرة للوجود الفردي والاجتماعي. وهذا ما أدى إلى تفكك المجتمع داخلياً، وتشظيه بتشظي الذات الفردية.

وتبرز الثقافة الإسلاميةُ حريةَ الذات الإنسانية، وهي حرية ضروريةٌ لنفي الهَمِّ، والحزن، والخوف من غير الله، ومحور الإبداع الإنساني. وتتركز هذه الحرية في العبودية، فالإنسانُ، إما أن يكون عبداً لله، مطيعاً لأوامره، فيلغي تبعيته لجسده بما فيه من شهوات لاتحد ولا تنتهي ، ويتحرر من عبوديته للمال، والمنصبِ، والدنيا، وإما أن يكون لا يؤمن بالله، فيكون حراً من هذه الجهة، إلا أنه عبدٌ لجسده وشهواته وللدنيا بما فيها من مغريات، يتم الحصولُ عليها من خلال الصراع مع "الهو" و"النحن"، والتبعية المنافقة للغير، فلا يحصل عليها إلا الأقوى، والأشرس، والأكثر حيلة ونفاقاً. وإذا ما حصل الفرد على شيء ما فإنه لا يكتفي به فينسى أن يستمتع بما بين يديه، لأنه يفكر مهموماً بما لم يمتلكه بعد. فيصبح عبداً للأشياء والدنيا، على حين أن الدنيا في الثقافة الإسلامية ما خلقت إلا من أجله، وسُخركل ما فيها له، ليكون هو سيداً لها، حراً في مقابل عبوديته لله، يقول الله كما ورد في نص حديث قدسي شائع في الكتب العرفانية: "يا عبدي خلقتك

من أجلي، فلا تلعب، وخلقتها من أجلك، فلا تتعب، فبحقي عليك، لا تنشغل بما خلقته لك، عمّا خلقتك له".

فالذات الإنسانية في العقيدة الإسلامية حرة، وحريتها تتناسب طرداً مع عبوديتها لله عز وجل، وبقدر تحقيق العبودية تكون لها السيادة الحقة على جميع الموجودات، وتحقق الاستخلاف في الأرض والإعمار، مستمدة حريتَها وقدرتَها على الفعل وتغييرِ العالمِ من تسليمها بعبوديتها لله الذي شهدت بوجوده في الشهادة، فأكدت وجودها في الأرض.

وإذا ما تحقق كل هذا في الذات الإنسانية، أصبحت سيدةَ الكون، وما يصدر عنها من إبداع أو صناعة إنما يكون لتحقيق معنى الاستخلاف، فكلما كانت الذاتُ حرةً بالعبودية كانت أقدرَ على التدخل في مفردات الكون، وإعادة تكوينها فتفعل بها ما تريد، وتغير فيها ما تشاء، وكأنها في ذلك تقول لله عز وجل: أنت خلقت الكون وما فيه، وبالخلق تجليت إلهاً، عرفتك مخلوقاتُكَ بك، وأنا صنعت الأشياء، وبالصناعة والإبداع تجليت ذاتاً عارفةً بك، خليفةً لك في الأرض.

وتحدد الثقافة الإسلاميةُ مكانَة العقل، فهو آلة الإنسانِ في تحقيق معنى العبودية والاستخلاف، وهو عقلٌ مقيدٌ، محدودٌ بالحواس، والزمان والمكان، والتجربة، والوسط، ولا يجوز إطلاق عمله فيما لا يخضع له من الأمور الغيبية التي يجب التسليم بها، أما الأمور الإنسانية فهو ليس حراً

فيها على الإطلاق، وإنما هو مقيد بمرجعية هي النظام الكوني الإلهي، فإذا عمل في داخلها، قُبِلَ عمله، وإلا فهو مردود على صاحبه.

كيف تعود؟

المسألة واسعة باتساع الكون الذي كان الإنسانُ أكبرَ منه، كما يقول ابن عربي:

أتحسب أنك جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

فالدخول في ذات الإنسان صعبٌ والخروج منها ليس سهلاً، ولا يمكن، في دراسة واحدة أو أكثر، الإحاطةُ بهذا المفهوم المتعددِ بتعددِ الأفراد. وقد حاولت هذه الدراسة أن تضع عدداً من الخطوط العامة التي يمكن أن تكون دعوةً للحوار في مسألة أصبحت اليوم هامةً جداً. فثقافة الأمة تجتاز مرحلةً خطيرةً بعد قرن من التغريب. وأصبحنا اليوم بحاجة إلى العودة إلى هذه الثقافة، في نقائها وجوهرها، لنرى فيها ذاتَنا، فنتمكنَ من العودة إليها عوداً واعياً. وهذا يعني أن المثقفين ليسوا، وحدَهم، مسؤولين عن التغيير الاجتماعي من خلال العودة إلى الذات، وهم ليسوا بمثقفين إن لم يعيدوا النظر في الذات الفردية والاجتماعية، ويربطوها بالثقافة الاجتماعية، وإنما يعني أن الناس جميعاً يجب أن يصلوا إلى وعي ذاتي ينظم إراداتَهم، وألا يبقوا في مجال التبعية والتقليد لشخصيات أخرى.

العودة إلى الذات أمرٌ ذاتي، يمكن أن يُعدي، فيصبحَ جماعياً. وهي ليست مسألةً فلسفيةً بحتةً، بل هي مرتبطةٌ بكل الخيوط التي تحرك حياة الفرد والجماعة. والعودةُ إلى الذات ليست نتيجةً طبيعية، وإنما تحصل لدى الأفراد في ظروف معينة، وتنتج عن تأثيرات ثقافية كثيرة. وهي، في اعتقادي، تقوم على ثلاث مراحل: تتأسس الأولى على امتلاك إرادة العودة، بعد أن يكون قد ثبتت، لدى الفرد، الحاجةُ إليها، والمرحلة الثانية تتأسس على معرفة الذات التي تراد العودة إليها، أما المرحلة الثالثة، وهي الأهم، فهي الانتقال من الفكر إلى العمل ومن المعرفة إلى الفعل، وهذا يعني اتحادَ الإرادةِ بالوعي وبالعمل، ليكون الإنسانُ مدركاً وجوده. ولعلّ أهم ما يلجأ إليه الإنسان في سبيل تنفيذ هذه المراحل مجتمعة هو الخلوة التي، هي وحدَها، قادرةٌ على توفير الفرصة له ليعود إلى الداخل، ولا أقول إلى الذات، ليتخلص من سيطرة الخارج الذي يعيش فيه. فهو كالمشردين الذين ينامون على الأرصفة لأنهم لا يملكون بيتاً يأوون إليه عندما يذهب جميع الناس إلى بيوتهم، بل هو في حال أكثر سوءاً، لأنه، في الحقيقة، يملك بيتاً رائعاً في الداخل، ولكنه يفضل النوم في العراء

كيف يمكننا أن نعرف ذواتِنا أو نعود إليها إن كنا نعيش دائماً في الخارج؟! ألا نرى أن أغلبنا يعيش بجسده فقط، وبحسب ما يريده الخارجُ منه

فقط؟!. أما آن الأوان لنعيش بالذات، ونحن نعلم أنه لن يموت أحد بالنيابة عنا؟!.

في طريق العودة إلى الذات، علينا أن ندرك أننا لا نستطيع أن نكون مسؤولين عن الآخرين إن لم نكن مسؤولين عن أنفسنا، أوَ يستطيع الذي لا يعرف السباحةَ أن ينقذ غريقاً؟ لو فعل فسيغرقان معاً. فكيف ندعي اليوم رغبة في إصلاح الآخر، أو هدايته، أو مساعدته على معرفة ذاته، أو العودة إليها، ونحن لا نملك ذلك لأنفسنا. لنكن نحن أولاً وليعدْ كل فرد منا إلى دائرته، إذ إنّ لكل فرد دائرةً خاصةً به، يمكنه أن يعمل فيها بحرية، وهناك دوائرُ الآخرين، ولعلنا نفضل، هرباً من أنفسنا، أن نوجه اهتمامنا إلى دوائر الآخرين المتقاطعةِ مع دائرتنا، فنبدي حرصاً على ترتيبها لهم، ونظهر اهتماماً بما يعملونه فيها، وقد نغضب لأن الأمور ليست على ما يرام لديهم، ودوائرنا تسود فيها الفوضى.

فلنبدأ بالعودة إلى ذواتنا قبل أن نطالب الآخرين بها، وعندها سنكون رواداً وأدلاء لهم. ولنعلم أن العودة إلى الذات هي أولاً جهد فردي، ولكنه يؤدي إلى خلاص جماعي.

العودة إلى الذات جهدٌ بشري، لا بد منه لتدخّلِ الذات الإلهية التي وعدت الإنسان بالتغيير إذا بدأ هو هذا التغيير، عندما قالت له: ﴿ ...

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ... ﴿١١﴾﴾[١٠]. فالتغيير الجماعي لا يحصل إلا بالتغيير الفردي، لأن تغيير النفس لا يمكن أن يكون إلا فردياً، ومسؤوليةُ الفرد فيه مقتصرةٌ على ما يبذله من جهد في العودة، وتغييرُ النفس إنما هو عودةٌ إلى الذاتِ الأصيلة، بعد تنقيتها مما أصابها من هجمات الثقافة الأجنبية وأنماط السلوك والقيم الدخيلة.

العودة إلى الذات هي عودة إلى المطلق، ولا تتم في الخارج وإنما في الداخل. إنها عودة من الخارج إلى الداخل لإعادة بنائه، لنكون أقوياء في الخارج. وهذه العودة ليست في ديكور المنازل وهي ليست ذوباناً في الإنسانية أو العالمية، كما أنها ليست انسلاخاً عنهما، وهي ليست عودةً إلى ما جربته الأمةُ من مبادئ ونظمٍ، أثبتت سوء نتاجها وعقم آثارها في الفرد والأمة، إنها عودة إلى ما هو موجود فينا أصلاً ومترسخٌ، يشكل منبعاً للطاقة والقوة والإبداع. إنها القيم الروحية والإنسانية المطلقة الموجودة فينا وفي كل إنسان آخر، وهي تتجلى اليوم في أضعف صورها في عاداتنا وتقاليدنا وسلوكنا اليومي.

هذه الذات تنبع من النبوة الأولى، نبوة إبراهيم، ولا تهتم بالاختلافات التي أنتجتها الظروف السياسية والاجتماعية التاريخية، وهي ليست في طقوس العبادات وآلية أدائنا لها، وإنما هي روح هذه العبادات، التي لا

[١٠] الرعد/١١

تفرق بين العربي وغير العربي، كما أنها لا تقيم وزناً للتسميات التي اتخذها البشر فلا تسأل إن كنت نصرانياً أو مسلمًا، سُنياً أو شيعياً، صوفياً أو سلفياً. إنها باختصار الشخصية الإنسانية الإسلامية الكونية التي كانت، وما تزال، وستظل، تشكل مصدر القوة الرئيس لدينا.

الفصل الثاني

الزمن المطلق والزمن المقيد

١- تمهيد

٢- أولاً: الإنسان كائن زمني

٣- ثانياً: ما الزمن؟

٤- ثالثاً: الزمن المطلق

٥- رابعاً: العلاقة بين الزمنين، المطلق والمقيد

٦- خامساً: الإنسان والزمن المطلق

٧- كيف نمتلك الزمن؟

٨- خاتمة

تمهيد

عندما فكّر الإنسان في الخلود، وسعى في الماضي إلى امتلاك أكسير الشباب، فبحث عنه في السحر والشعوذة، وفي الأسطورة والكيمياء؛ فإنه في حقيقة الأمر كان يجسّد علاقته بالزمن، إذ يبدو أنه ما كان راضياً عن الفترة الزمنية التي يعيشها، ولطالما عدّها غير كافية لتحقيق آماله وأحلامه الطموحة دائماً. وعلى الرغم من أن الإنسان في العصر الحديث استطاع أن يضيف سنوات إلى وجوده الأرضي، سواء أكان ذلك عن طريق الطب والرعاية الصحية، أم عن طريق امتلاك تقنيات حديثة تختصر له الزمن، إذ كان عليه في الماضي قضاء سنوات أو أيام أو ساعات في إنجاز أمر ما، فإن علاقة الإنسان بالزمن لم تحلّ بعد، بل لعلها اتخذت شكلاً أكثر تعقيداً مما كانت عليه من قبل مع الاكتشافات العلمية، وبخاصة منها الكونية أو الذرية، إذ من الواضح اليوم أن الكون بما فيه من نظام وحركة مصغّرٌ في الخلية الحية، وهما بالتالي يخضعان معاً لنظام واحد، وحركة مشتركة وزمن متشابه.

ليس من المجدي على الإطلاق أن ندرس الزمن والحركة التي تنتجه، ونتكلم على مقاييسه وأنواعه إن لم يكن ذلك من أجل فهم علاقة الإنسان به، وتحسين الوجود الإنساني.

وكما في الفصل الأول فإن غاية هذه الدراسة ليس فلسفياً، كما أنه ليس دينياً، وإنما هو الإنسان في علاقته مع ذاته أولاً، ومع العالم المحيط به ثانياً. إذ إن العلاقة الثانية تتأسس على الأولى، وهي على صورتها، ولعل هذا الهدف يصاغ في نقاطٍ عدة، تقود جميعها إلى الهدف الرئيس، ألا وهي:

• رفض العبثية في الوجود الإنساني، إذ لا عبث في الوجود كله، والإنسان جزء منه، بل الوجود بأجمعه مسخّر للإنسان، ولم يخلق إلاّ له. وإذا سقط الوجود الإنساني في العبثية سقط الوجود كله في ذلك، ولم يعد له أي معنى.

• ولما كان رفض العبثية مبدأً عاماً في الوجود الإنساني، فقد اقتضى رفض العبثية في الفعل الإنساني، إذ إنّ الوجود الإنساني من حيث قيمته وجوهره هو الذي يحدد قيمة الفعل الإنساني ومعناه، وفاقد الشيء لا يعطيه، فلا يمكن لإنسان لا يؤمن بمعنى الوجود الإنساني ورفض عبثيته، أن تصدر عنه أفعالٌ ذات قيمة أو غير عبثية، كما أنه لا يمكن للإنسان أن يدّعي التوفيق بين عبثية الوجود وقيمة الفعل، إذ إن الثاني صادر بالضرورة عن الأول ويستمد قيمته منه.

• اكتشاف الذات والسعي إلى معرفتها والعودة إليها للعيش فيها، وبها، ومنها، (فيها) لأنها مصدر قيمة وجودنا الأرضي، ومعرفتها ضرورية لامتلاك هذا الوجود على الحقيقة، و(بها) لأن هذا الوجود لا يمكن أن

تكون له قيمة إلا إذا عشناه بها، ونظرنا إليه، وتعاملنا معه وفسرناه، وتصورنا المستقبل من خلالها، و(منها) لأن أي قرار أو فعل، أو قول أو عمل، أو موقف أو سلوك، يصدر عن الإنسان هو منها، وإن لم يكن كذلك فلا قيمة له، وإن كان بالمصادفة جيداً، لأن من لا قيمة له في أصله، لا قيمة له في فرعه.

• اكتشاف البعد الزمني للوجود الإنساني بمستوييه: الخارجي والداخلي، أو المقيد والمطلق، لأن الأول مرتبط بالثاني ويتأسس عليه، وأي نسيان له أو إسقاط من معادلة الوجود الإنساني، يعني الوقوع في العبثية والفوضى والضياع.

• إدراك قيمة الزمن المعيش حتى لا يضيع في صغائر الأمور، لأن الإنسان، بين نقطتي الولادة والموت، اللتين لا يملك في تحديدهما أية سلطة، قادرٌ على أن يتحكم في وجوده بينهما، فهو زمنه الذي منحه الله إياه، وهو كافٍ لتحقيق الوظيفة التي خُلق الإنسان من أجلها، إذ إن الله العادل لا يكلف نفساً إلا وسعها، ومقتضى العدل ألا يكلف العبد بما لا يحتمل، أو ما لا يمكنه فعله، ولا بد للسيد من أن يمنح العبد ما يمكّنه به من تحقيق التكليف وأداء الوظيفة. وعلى ذلك فإن الله أعطى الإنسان كل ما هو ضروري من الطاقات والوسائل والأدوات ليتمكن من أداء وظيفته في العبودية والاستخلاف، على أفضل وجه، في الزمن المقدّر له. وإن لم

يفعل، فإنما هو تقصير من جهة الإنسان، يُلام عليه، ويحاسب يوم القيامة، فتشهد عليه أعضاؤه بأنه قصّر وما قام باستخدام ما آتاه الله في تحقيق ما كلفه به.

بين نقطتي الولادة والموت يملك الإنسان أن يعيش فيقرر معنى وجوده من خلال المعرفة والوعي والإرادة، فيدرك قيمة الزمن المعيش، سواء أكان ذلك عمره بأكمله، أم ذلك الجزء الصغير من الثانية الذي ما هو في حقيقة الأمر إلا العمر ذاته، فلا يضيع الجزء، فيضيع الكل. ولا بد لذلك من امتلاك نظرة عريضة للوجود المرتبط بالزمن، تمكنه من حسن الاختيار الضروري بين الأفعال والأقوال، فلا يمضي زمنه في أفعال لا قيمة لها، فيقابل أشخاصاً يجروّنه إلى الخوض في أحاديث لا قيمة لها، ويقرأ كتباً غير مفيدة، إن لم تكن ضارة، لأنها تشغله عما هو جوهري في وجوده.

• امتلاك الوعي الضروري لتصحيح النظرة إلى الوجود والكون والإنسان والله. وهو وعي يحرك الإرادة الفاعلة في الوجود، ومرتبط بالذات من جهة، وبعلاقتها بالزمن من جهة أخرى، وغياب هذه النظرة يعني وقوع الفعل الإنساني في العبثية، فلا قيمة لأي عمل، مهما كانت طبيعته، إن لم يرتبط بوعي يحركه نحو غاية معينة لتحقيق وظيفة الإنسان في الوجود. وهذا الوعي مرتبط بأبعاد ثلاثة هي: الله والكون والإنسان، ولا

يمكن أن ينفصل عنها أو عن أحدها، وغياب أحدها منه يعني قصوراً فيه، ومن ثم خطأ في التصور والفعل.

• تحسين العلاقة مع الذات والكون والله والإنسان، ولا يكون ذلك بامتلاك الوعي والإرادة. إذ إن امتلاك الوعي لا يكفي ليعيش الإنسان بسعادة، وإنما لا بد من اقترانه بالإرادة المحركة للفعل والدافعة إليه. وهو ما يعني في نهاية الأمر تحسين علاقة الفرد، وعياً وإرادة، أو نظرياً وعملياً، بذاته أولاً، ليتمكن من ثمّ من تحسين علاقته بالكون والإنسان، وهو لا يحقق تحسين علاقته بذاته إلا إذا اقترن ذلك بتحسين علاقته بالله، إذ إن العلاقة جدلية بين وعي الذات ومعرفتها، ومعرفة الله، عزّ وجلّ، مبدعها ومصورها.

• وليس مجدياً في النهاية أن يحيط الإنسان بكل تلك المعرفة المشار إليها، ويحقق تلك الأهداف المنوطة بمعرفة الزمن ووعيه من غير أن يوظف تلك المعرفة في امتلاك المقدرة العملية على تغيير العالم، فالإنسان مسؤول عن وجوده الأرضي، وعليه أن يحقق هذه المسؤولية من خلال العمل، ليتمكن من تغيير العالم تحقيقاً لمعنى الاستخلاف، ورفع الظلم عنه، وتصحيح ما فيه من أخطاء اقترفها بحقه من لا يملك تلك المعرفة، وتحقيقاً لمعنى العبودية المنوطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية لا قيمة لها في ذاتها، وإنما بحسب غايتها ووظيفتها، وكل معرفة _ بحسب هذه الثقافة_ يجب أن تكون في خدمة الوجود الإنساني المحدد في العقيدة الإسلامية. وأي خروج عن وظيفة المعرفة هذه يعني ضياع الفرد والأمة معاً، وفقدان المسؤولية، والابتعاد عن إمكانية تحقيق الوظيفة التي حددها الله لهذه الأمة، وذلك الفرد على السواء.

أولاً: الإنسان كائن زمني

نعني بهذا القول أن الإنسان في وجوده مرتبط بالزمن، بل هو عين الزمن، ووجوده رهن به من جهتي وجوده المادي والفكري. فهو من حيث العَرَض، يولد وينمو، ويشبُّ ويشيخ، ويموت، مرتبطاً في كل هذا بالزمن من حيث الماضي والحاضرُ والمستقبلُ، ومن حيث حركةُ الليل والنهار، واليوم والأسبوع، والشهر والسنة. وهو، من حيث الجوهر، يتعلّم ويكتسب التجارب والخبرات والمعارف، وهو في ذلك أيضاً مرتبط بالزمن، إذ كلما طال عمر الإنسان، كانت معارفه أكبر، وتجاربه أكثر، وهو ما يعمّق معنى وجوده، ويكسب زمنه الخاصّ به قيمة وغنى.

الإنسان كائن زمني، يولد في ساعة، ويموت في ساعة، ولذلك أقسم الله بالزمن تنبيهاً على قيمته، وربطاً للنظام الوجودي الإنساني

بالزمن: ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾[1] فالإنسان خاسر أو رابح في هذه الحياة الدنيا، وهذا إنما يتقرر في الزمن المتاح له، إن أحسن الاستفادة منه أو لا، وفي الحديث الشريف، أن خير الناس من طال عمره وحسن عمله، دلالة على ارتباط الزمن بالفعل الإنساني.

ويمكننا إحالة الوجود الإنساني الزماني إلى ثلاثة أزمنة هي: الماضي، والحاضر، والمستقبل. فالإنسان في اللحظة الراهنة يقف في نقطة تتقاطع مع الخط الممتدّ بين الماضي والمستقبل، تلك اللحظة هي الزمن الحاضر.

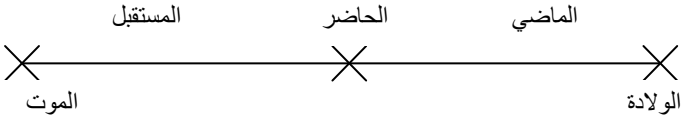

وهو لا يعرف مدى قرب تلك اللحظة من الموت أو بعدها عنه، ولذلك فإن قيمة الزمن الحاضر مهمة بالنسبة إليه، لأنها هي الحقيقة المعيشة التي يملكها في وجوده، وخاصة إذا عرفنا أن الماضي لم يعد له وجود إلا في ذاكرته، وأن المستقبل ليس موجوداً إلا في التصور، فالإنسان يفكّر فيه، ويخطط له، وينتظر قدومه، ولكنه قد لا يأتي بالنسبة إليه. ولعل

[1] سورة العصر.

الحاضر هو الدليل المادي الوحيد على وجود الزمن، وما هو على الحقيقة إلا وسيط بين المستقبل المتصوَّر، والماضي الكائن في الذاكرة، ولا يتشكل في جوهره إلا من ذلك الجزء من الثانية الذي يمر فيه المستقبل المتصوَّر ليصبح ماضياً، وهو وحده الجزء المعيش على الحقيقة من الزمن، وعلى هذا فإن الحاضر لا وجود له حقيقة، وإنما هو حصيلة سيولة الزمن في الإدراك البشري. وإذا كان الأمر كذلك، فقد تبين أن الماضي لا وجود له، وكذلك الحاضر والمستقبل، ولا يبقى من الزمن المادي، بالنسبة إلى الإنسان، إلا ما تتركه سيولة هذا الزمن من أثر في ذاكرته التي هي مجموع تراكمي انتقائي، من الأحداث والتجارب والخبرات، التي مر بها الإنسان في لحظات الحاضر، وأصبحت ماضياً. إلاّ أنّ المجموع هو الذي يحدد سلوك الإنسان، ويحكم علاقته بالحاضر والمستقبل، فالماضي، أو ما تبقى منه في الذاكرة، يحدد مفهوم الإنسان للزمن، كما يحدد نوع المشاعر والأحاسيس، والأفعال وردود الفعل الصادرة عنه في علاقاته مع الواقع، كما يصوغ تصوره للمستقبل، وتخطيطه له.

إلا أن ما تقدم لا يعني على الإطلاق إمكانية فصل الحاضر عن الماضي أو المستقبل، إذ إن هذه الأزمنة موجودة معاً في وقت واحد في الحياة الإنسانية، فالحاضر مفعم بالماضي مثقل بالمستقبل، والزمن سيّال، بحسب مقولة هيرقليطس: "إنك لا تستطيع أن تستحمّ بماء النهر مرتين"،

فأنت لا تتمكن من الإقامة في لحظة واحدة متجددة باستمرار، فلا تكاد تبدأ حتى تنتهي لتحلّ محلها لحظة جديدة، وعلى هذا فإن الزمن كلٌّ إنساني، بغض النظر عن طبيعته المادية، وسيولته وتعدد أجزائه المكونة له، ولا يمكن للإنسان أن يعيش خارج هذه المنظومة المعقدة والبسيطة، في آن واحد، من الزمن.

ثانياً: ما الزمن؟

الزمن في تعريف الفيزيائيين: جوهر مرتبط بالحركة، وناتج عنها، فحيث توجد حركة يوجد زمن، وهو متناسب معها، فلكل حركةٍ زمن خاصٌّ بها، وهذا ما كشفت عنه نظرية النسبية، وقامت عليه.

الزمن ليس واحداً، وإنما هو أنواع مرتبطة بأنواع الحركة الصادرة عنها، ولما كان لدينا ثلاثة أنواع من الحركة، فإننا نستطيع تقرير ثلاثة أنواع من الزمن:

١. النوع الأول هو الزمن الطبيعي/الرياضي، المرتبط بحركة الفلك والمجرات، والشمس والأرض في دورانها حول نفسها من جهة والقمر معها يدور حول نفسه وحولها، وفي دورانها حول الشمس من جهة أخرى. ولهذا الزمن قوانين خاصة به تتعلق بنظام الكون، ووجود الجاذبية أو انعدامها في الفضاء الكوني. ولا يُحسب هذا النوع من الزمن إلا رياضياً،

إذ إن المسافات الهائلة الفاصلة بين المجرات تحسب بالزمن الضوئي، أو السنوات الضوئية التي تقوم على أن سرعة الضوء هي ما يقارب ٤٠٠٠٠٠ كم في الثانية.

٢. النوع الثاني هو الزمن الحيوي المرتبط بالحياة الموجودة في الكائنات الحية، وهي حركة دائبة موجودة في كل أنواع الحياة، البسيطة منها والمعقّدة، ابتداءً من أصغر الكائنات الحية إلى الإنسان أكثرها رقياً. فهي حياة يشترك فيها الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وينتج عنها حركة تولد زمناً نسميه الزمن الحيوي، وهي حركة تضبط الكائن الحي داخلياً، وتحقق لديه توازناً بين حركته الخاصة به، وحركة الزمن الطبيعي المحيطة به، في وجوده الأرضي. وتبدو حركة الزمن الحيوي في الإنسان، في أفضل تجلٍّ لها، في الدوران المنتظم لمكونات الخلية الحية فيه، وهو دوران داخلي ينتج عن حركة الحياة فيها، ويؤدي إلى تجدد الخلايا من خلال الموت والولادة. وترتقي حركة الزمن هذه لتكون واضحة للنظر في دورة الدم ودقات القلب ذات الإيقاع المنتظم، وحركة الرئتين، كما تتضح بصورة أكبر في الدورة الشهرية عند المرأة، وفي الحمل والولادة، والإرضاع والفطام.

٣. أما الزمن الثالث فهو الزمن الإنساني، لارتباطه بالإنسان، واختصاصه به. وتفسير هذا الزمن يختلف من حضارة إلى أخرى باختلاف

مفهوم الإنسان وطبيعته لديها، بحسب ما إذا كانت حضارة دينية غيبية، أو مادية طبيعية.

وتلحق طبيعة هذا الزمن بطبيعة الإنسان نفسه، وتأتي بناء على ذلك من جهتين خاصتين به، ينتج عنهما نوعان من الزمن الإنساني هما: زمن خاص بالعَرَض/الجسد، وزمن خاص بالجوهر/ الذات، فالإنسان عَرَض بجسده، جوهر بذاته، والزمن الإنساني زمنان، يقابل الأول العَرَض، والثاني الجوهر، وذلك بحسب المقولة التي تنسب الزمن إلى الحركة. فالجسد الإنساني له حركته الخاصة به، كما أن للذات حركتها الخاصة بها، وهذه الخصوصية إنما تأتي من جهة طبيعة كل من الجسد والذات: فالأول مادة، وحركته الطبيعية مقيدة بالزمن والمكان، وملحقة بهما، وعلى هذا فزمنه الخاص به مقيد كطبيعة حركته. على حين أن الذات جوهر مجرد، وحركتها مطلقة، وليست مقيدة بالزمن والمكان الطبيعيين، وإنما لها زمنها الخاص بها الذي يليق بطبيعتها المطلقة، ولذا فزمنها مطلق، على الرغم من ارتباط حركتها هذه بالزمن والمكان الطبيعيين، من خلال كونها في الجسد التابع لهما.

ولما كان زمن الجسد مرتبطاً بحركته، وكان، بحسب طبيعته المادية، قابلاً للموت الذي يعني انعدام الحركة، فقد اقتضى أن ينعدم هذا الزمن بانعدام الجسد، على حين أن زمن الذات المرتبط بحركتها لا ينعدم،

لأنها بحسب طبيعتها مطلقة تنتقل من حال إلى حال. وإذا كان الأمر على ما تقدم، فقد تبيّن أن الزمن الإنساني زمنان: مقيد ومطلق، مقيد خاص بالجسد المقيد، فانٍ بفنائه، ومطلق خاص بالذات، خالد بخلودها.

فأيٌّ من هذه الأزمنة أهم من الآخر، ومقدم عليه؟

الحق أن جواب هذا السؤال جاء فيما تقدم، فلا قيمة لأي من هذه الأزمنة إلا بوجود الأخرى، فكل منها يستمدّ وجوده وقيمته من الزمنين الآخرين. فالزمن الطبيعي وُجد بأمر الله، وانسجم معه الزمن الحيوي لأنه منه، فهو وإياه في علاقة انتظام وانسجام بحسب القوانين الإلهية، ولا قيمة لأي منهما إلا بالآخر. والزمن الإنساني بنوعيه: المطلق والمقيد، مرتبط بالطبيعي والحيوي، إلا أن علاقة الزمن الإنساني بهما علاقة معقدة جداً، تحددها عناصر كثيرة في الوجود الإنساني، منها العنصر الذهني والعقلي والشعوري والحسي والذاتي، وهذا ما يجعل العلاقة نسبية وغير خاضعة للنظام ذاته الذي يخضع له كل من الزمنين الطبيعي والحيوي. وتصبح العلاقة أكثر تعقيداً وغنى عندما يتعلق الأمر بالزمن الإنساني المطلق الذي يضفي على التعقيد الأول بعداً غيبياً يرتبط بأصل الوجود الإنساني وجوهره المرتبط بالذات الإلهية. إلاّ أن الترابط بين الأزمنة لا يعني المساواة بينها على الإطلاق، إذ إن الزمن الإنساني أرقاها، وباقي الأزمنة لم توجد إلا من أجله، وهي في خدمته. كما أن الزمن المطلق الإنساني أرقى

من الزمن الإنساني المقيد، لأن العلاقة بينهما هي علاقة فرع بأصل، وجزئي بكلي، فما كان المقيد ليكون لولا وجود المطلق، الذي شاءت الإرادة الإلهية أن يكون لحكمة لا يدركها العقل البشري. إلا أن المطلق بحاجة إلى المقيد ليحقق وجوده في هذا العالم، كما أن المقيد يستمدّ قيمته العليا من ملازمته المطلق وارتباطه به.

إنّ هذه العلاقة بين الأزمنة المختلفة تبيّن مدى أهمية الوجود الإنساني وقيمته بالنسبة إلى الله الذي منحه هذا الغنى، وجعله مصدر رقي الإنسان الناتج عن سعيه نحو الكمال الخاص به. وتحقق هذا الرقي يتناسب طرداً مع قدرة الإنسان على تحقيق الانسجام بين هذه الأزمنة مجتمعة. فإذا ما خرج الإنسان على هذا الانسجام الزمني، فإنه يخرج على النظام الكوني، وهو خروج يُحدِث خللاً في عين الوجود الإنساني، ينعكس على كل الموجودات، كما ينعكس على النظام الكوني نفسه.

ثالثاً: الزمن المطلق

كثيرة، نسبياً، هي الدراسات التي تتكلم على الزمن المقيد، ونادرة جداً تلك التي تتحدث عن الزمن المطلق، زمن الذات. ولعل السبب في ذلك أن معظم تلك الدراسات كتبها ماديون، وعلمانيون، لا يعترفون في كلامهم على الإنسان بالبعد الغيبي لوجوده. هؤلاء أنفسهم يسلّمون

بوجود هذا الزمن، إلا أنهم لا يعرفون كنهه، ولا يستطيعون تفسيره، ولذلك فهم يهملون الحديث عنه. وهم يسلّمون بوجوده تسليماً علمياً، إذ إن العلم يقدم لنا أدلة على وجوده، على الرغم من عجزه عن تحديد طبيعته ووصف ماهيته. ولعل أبرز هذه الأدلة أن جميع الفلكيين والعلماء الذين اهتموا بدراسة نشأة الكون وحركته، يقررون بوجود لحظة حدث فيها ما يُسمونه الانفجار الكبير، (big bang)، الذي شكّل بداية وجود الكون وحركته التي نتجت عنها المجرات والشموس والكواكب والأقمار، بما فيها النظام الشمسي، وما يشكله من كواكب وأقمار، هي في حركة دائمة لا تتوقف، ككلّ مفردات الكون الذي ما فتئ يتّسع باستمرار، إلا أن هذا الاتساع يمضي إلى منتهاه الذي يقر به الفلكيون، وإن كانوا لا يعرفون متى سيكون، وكيف.

إن هذه النظرية في وجود الكون تطرح سؤالين هامين: إذا كانت الحركة هي سبب الزمن، فما نوع الزمن الذي كان موجوداً قبل حدوث الانفجار الكبير؟ ما طبيعته وما حدوده؟ وهل هو ناشئ من حركة؟ أم أنه زمن من نوع آخر يتبع حركة من نوع لا نعرفه؟ وما الحركة التي أنتجت هذا الانفجار الكبير، وما الزمان الذي كان يتولد منها؟ والسؤال الثاني هو: إن الكون عندما يتوقف عن الاتساع، بحسب النظرية، سيتلاشى، ويفنى، لانعدام الحركة التي تعني انعدام الزمن الخاص به، فما نوع الزمن

الذي سيكون موجوداً آنذاك؟ أم أن ثمة فراغاً حاصلاً بعد ذلك لا يمكن للعقل تصوره؟

نعتقد أن الجواب عن هذين السؤالين هو وجوب وجود زمن من نوع آخر ليس كالزمن الفلكي، زمن تنتجه حركة لا نعرف كنهها، وله نظامه الخاص به، وقوانينه التي تميزه من قوانين الزمن الفلكي، هذا الزمن هو ما نسميه بالنظام الزمني المطلق الذي ينتمي إليه الزمن الإنساني المطلق.

ودليل ثانٍ، علمي، على وجود هذا النظام الزمني المطلق نستنبطه من حقيقة علمية توصّل إليها العلم الإنساني على مر الزمن وتطور الحضارات، مفادها أن ثمة نظاماً أو قوة لا يُعرف كنهها أو ماهيتها أو طبيعتها أو مصدرها، تقف وراء الانفجار الكبير، وما نتج عنه من نظام كوني فلكي بكل ما فيه من قوانين ناظمة لوجوده. هذه القوة، التي لا تخضع للنظام الكوني، لأنها سابقة عليه، ومستمرة بعد انتهائه، وتسميها الديانات السماوية: الإله، ليست من جنس الزمن الكوني المقيد، ووجودها لا يمكن أن يحيط به العلم أو العقل البشريان الخاضعان للوجود المقيد وزمنه، فهي قوة مطلقة، وهي، في اعتقادنا، مصدر النظام الزمني المطلق، أو إن صحّ التعبير، هي عينه.

ولعل الدليل الأهم، بالنسبة إلى الثقافة العربية الإسلامية، إنما يأتي من مصدر آخر غير العلم، هو نفسه صدر عن الزمن المطلق، نقصد بذلك العقيدة الإسلامية: القرآن والسنة، التي تمكننا من استنباط وجود هذا الزمن، ومعرفة طبيعته من خلال مراحل الوجود الإنساني التي تعرضها هذه العقيدة. والرابط بين الزمن المطلق والوجود الإنساني رابط قوي جداً، بل هو جوهري لارتباط هذا الوجود، في تلك العقيدة، بالزمن المطلق.

ومراحل الوجود الإنساني، أو مستوياته، في العقيدة الإسلامية ست، هي: العلم الإلهي، وعالم الذر، وبطن الأم، والحياة الدنيا، والقبر، والحياة الآخرة.

١ – العلم الإلهي

أولى مراحل الوجود الإنساني عندما كان الإنسان في العلم الإلهي قبل أن يخلق، فشاءت الإرادة الإلهية أن تخلقه، فأعلمت الملائكة بإرادتها هذه، فكان قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[٢]، دليلاً على وجود هذه المرحلة التي لا يمكن تصنيفها إلا داخل الزمن المطلق الأزلي السرمدي،

[٢] سورة ص/ ٧١-٧٢.

حيث كان الله ولا شيء معه، ثم كانت الموجودات بفضل نوره، ومن بينها الإنسان، بل لعله آخر المخلوقات من حيث الترتيب، وأولها من حيث الأهمية لكونه عبد الله وخليفته في أرضه، فخلق الله الكون، وسخره له من أجل تمكينه من تحقيق عبوديته ومعنى استخلافه على الحقيقة.

ما كان الإنسان قد خلق بعد، في هذه الآية، بل كان موجوداً في العلم الإلهي، جوهرِ الزمن المطلق الذي لا يعلم كنهه إلا الله، فقد جاء قول الله تعالى: "إني خالق بشراً من طين" ليدلَّ على نية الخلق، فهو لم يخلق بعد. وهذا شبيه بمسألة عرضها نحويٌّ على متكلّم، فقال له: ما حكم من قال: (إني قاتلُ أخيك)، ومن قال: (إني قاتلٌ أخاك)؟ فأجاب المتكلم: القتل، لاعترافه بالقتل، فقال النحويّ: أخطأت، لأن الثاني لم يرتكب جرماً، وإنما يفصح عن نية القتل، على حين أن الأول اعترف بأنه هو القاتل، والقصاص يكون منه.

٢- عالم الذرّ

والمرحلة الثانية، التالية للأولى، هي التي كان الناس فيها، كلهم في ظهور آبائهم، ابتداءً من آدم عليه السلام، ودليل هذه المرحلة قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ

﴿١٧٢﴾[٣]. إذ تبين هذه الآية أن الناس جميعاً، من آدم إلى يوم القيامة، كانوا، قبل وجودهم في العالم الأرضي، في وجودٍ ما، ينتمي إلى عالم غير عالمهم المادي، وزمن غير الزمن المادي، كانوا فيه ذواتاً قادرة على سماع الخطاب الإلهي ووعيه والإجابة عنه، من غير أن يكونوا في أجساد ترابية، وهم بذلك ينتمون إلى الزمن ذاته المهيمن في المرحلة السابقة: الزمن المطلق.

٣- بطن الأم

مرحلة بطن الأم هي التي يوجد فيها الإنسان منذ أن يتشكّل في خلقته المادية الترابية، إلى أن يولد، وهي مرحلة برزخية، يستعد فيها الإنسان للانتقال من وجود مجرد صرف في الزمن المطلق، إلى وجود مادي في الزمن المقيد يبدأ وجودُه على الحقيقة بالولادة.

٤- الحياة الدنيا

المرحلة الرابعة من الوجود الإنساني تمثل الزمن المقيد، يكون الإنسان فيها من جهة الجسد، كباقي المخلوقات الحية، خاضعاً لحركة خاصة بالفلك، والأرض في مجموعتها الشمسية، فهو ينتمي في وجوده هذا إلى حركة مادية طبيعية ينتج عنها زمن مقيّد، مضارع للزمن الطبيعي. وبذلك تكون هذه المرحلة الوحيدةَ التي يكون فيها الإنسان جسداً

[٣] الأعراف/١٧٢.

خاضعاً للزمن المقيد. إلا أنه، وهو في وجوده هذا، ومن جهة أنه ذات وجسد، يملك زمناً موازياً للزمن المادي اللائق بالجسد، هو ذلك الزمن المطلق الناتج من حركة الذات الخاصة بها. وعلى هذا فإن الزمن المطلق دائم الوجود في الإنسان، ولا ينقطع عنه إلا في هذه المرحلة، فيصبح وجوداً بالقوة إزاء الزمن المادي المقيد الموجود بالفعل. ولعلنا نستطيع إحالة إنسانية الإنسان في الثقافة العربية الإسلامية إلى وجود الزمن المطلق فيه، الموازي للزمن المقيد الذي يشترك فيه الإنسان وباقي المخلوقات، على حين أنها لا تشاركه في الزمن المطلق.

ويتقاطع الزمن المطلق مع المقيد في حالات معيّنة من الوجود الإنساني، تختلف من فرد إلى آخر، ومن زمن إلى آخر، حيث يشعر الإنسان في تلك الحالات التي يعيش فيها ذلك التقاطع أن الزمن المقيد ينمحي لصالح المطلق، وأن للمطلق قوانينه الخاصة به، وهي التي تحكم المقيد، لأن هذا فرع، وذاك أصل، وهذا مؤقت، وذلك سرمديّ.

٥ – القبر

المرحلة الخامسة هي وجود الإنسان في القبر، وهي برزخية شبيهة بالثالثة، يعود الإنسان فيها من وجوده المقيد إلى المطلق، على حين أنه في المرحلة الثالثة يخرج من المطلق إلى المقيد. وهي بالتالي مرحلة تنتمي إلى

الزمن المطلق، لأنها فيه من حيث تحلّل الجسد وعودته إلى التراب، على حين أن الذات/الجوهر، تبدأ رحلة عودتها إلى عالمها الأول.

٦- الحياة الآخرة

وهي المرحلة السادسة والأخيرة، يكون الإنسان فيها في الزمن المطلق الذي كان فيه قبل أن يكون جسداً. وتمتاز هذه المرحلة عن سابقتها بأنها هدف هذه المراحل جميعها، وغايتها، وفيها نتائجها. فبعد أن كان الإنسان في المرحلتين، الأولى والثانية، موجوداً بالقوة، وهو ليس خيّراً أو شريراً، لأن هذا لا يأتيه إلا بعد التكليف، وليس مكلفاً فيهما، أصبح كذلك في الحياة الدنيا، وهي المرحلة الرابعة، ولذلك عدّت هذه المرحلة أهم مراحل الوجود الإنساني، لأنه فيها يصبح إنساناً على الحقيقة، مكلفاً ومزوّداً بالقوى الضرورية التي تمكّنه من تحقيق ذلك التكليف، ولأنه، فيها أيضاً، يقرر، هو نفسه، حالَه في المرحلتين التاليتين، وخاصة السادسة، أي الحياة الآخرة، فيكون من الأشقياء في أسفل السافلين، أو يكون من السعداء في أعلى عليّين، أو بين هاتين المرتبتين بحسب أعماله في الحياة الدنيا.

إنّ مراقبة المراحل المختلفة تمكّننا من استنباط حقيقتين: أولاهما أن الزمن المطلق غالب في المراحل كلها، وهو الحاكم فيها والموجّه لها، والمتحكّم في طبيعتها، ويبدو هذا بشكل خاص في المرحلة الرابعة: الحياة

الدنيا. أما الزمن المقيد فلا وجود له إلا بشكل نسبي لا يقاس بالزمن المطلق من حيث السرمدية والأبدية، وهو، مع وجوده في المرحلة الرابعة، ليس مستقلاً عن المطلق، بل هو تابع له ونتيجة عنه، ومحكوم به، ولا يستمدّ قيمته إلا منه. أما الحقيقة الثانية فهي أن الأصل في الزمنين هو المطلق، لأنه يشكّل البداية والنهاية، على حين أن المقيد تابع ومؤقّت وزائل، كما أن المطلق يحيط بالمقيّد، ويتقاطع معه، ويمنحه قيمته، ولولاه لما كان للمقيّد وجود ولا قيمة.

ولمّا كان الزمن بنوعيه إنما عرفناه من خلال الوجود الإنساني، فقد اقتضى أن يكون الإنسان في وجوده خاضعاً لنظامي الزمن، المطلق والمقيد، في وقت واحد، إلا أن عيشه في الزمن المقيد جسداً، وغياب البعد الغيبي في وجوده من حيث الذات/الجوهر، وابتعاده عن الإيمان بالله، ونسيانه الإشهاد الذي أُخذ منه في عالم الذر، جعله يعتقد أن الوجود ماديٌّ فقط، وأن الزمنَ هو زمن مقيدٌ فقط، وأنه لا وجود لزمن من نوع آخر. وقد حرص الماديون والعلمانيون على رفض أي زمن آخر غير المقيد المرتبط بالجسد والمادة وحركتها، وهم يحرصون أيضاً، كنتيجة منطقية لما سبق، على رفض أيّة قيمة للوجود الإنساني مستمدّة من خارج هذا الزمن. وإذا كان الأمر كذلك، فإن قيمة الوجود الإنساني لا تختلف كثيراً عن قيمة أي موجود في هذا العالم، سواءً أكان جماداً أم نباتاً أم حيواناً. ويطرح

موقف العلمانيين والماديين هذا من قيمة الوجود الإنساني سؤالاً مهماً: ما قيمة الوجود الإنساني على الحقيقة؟ سوف تتلاشى أية قيمة مفترضة لهذا الوجود، وتصل إلى مرحلة العدم عندما نتذكر مجموعة الحقائق الكونية التي توصَّل الإنسان إلى معرفتها بنفسه، فالإنسان يعيش حياة قصيرة جداً بالمقارنة مع الكائنات التي عاشت، وتعيش، وسوف تعيش على الكرة الأرضية، هذا إن لم نقس حياته إلى عمر الكواكب والنجوم والمجرات. ويمكن تلخيص تلك الحقائق الكونية في أرقام يمكن التعامل معها بسهولة ووضوح، فالأرض كوكب في المجموعة الشمسية التي تنتمي إلى واحدة من المجرات الكونية. ولكن الأمر لن يبقى بهذه البساطة إذا عرفنا أن في مجرتنا ٤٠٠ مليار نجم كالشمس، وأن في الكون ٤٠٠ مليار مجرة، وأن أقرب هذه المجرات إلينا يبعد عنا سبعمائة مليون سنة ضوئية.

لقد كان الغرب المسيحي يعتقد قبل كوبرنيكس وغاليلو أن الأرض مركز الكون، وأن الشمس والكواكب تدور حولها، وقد استمدوا من اعتقادهم هذا مكانة رفيعة للإنسان، كان فيها مركز الكون إلا أن هذه المكانة سرعان ما تهاوت بعد كوبرنيكس وغاليلو، ليحلّ محلها شعور بضآلة الوجود الإنساني، وميل إلى تعويض هذه المكانة المفقودة بتمجيد العقل الإنساني، وهو ما تجلّى في النزوع الكلاسيكي الذي ظهر مع بداية عصر النهضة في الغرب المسيحي. إلا أنّ ما جرّه العقل الإنساني من

ويلات وكوارث على الإنسان في الغرب، وتجسّد في حروب ضروس عديدة ليست آخرها الحرب العالمية الثانية، جعل الغرب يفقد تقديسه للعقل، وهو ما تجلّى في تيّار ما بعد الحداثة الذي قام على نقد قيم الحداثة ومهاجمتها، والتأكيد على فشلها في الوصول إلى الأهداف التي حددتها لنفسها، والتبشير بسقوطها.

إن قيمة الإنسان في الزمن المقيد لا يمكن على الإطلاق أن تُستمدّ من هذا الزمن، لأنه هو ذاته لا قيمة له بذاته، وإنما يستمد قيمته من زمن آخر. ولن يكون من الممكن إعطاء الوجود الإنساني قيمة جوهرية إن استبعدنا من وجوده البعد الغيبي، مصدر القيمة المطلقة لوجوده. وعلى هذا، فإن قيمة الوجود الإنساني الحقة على مستوى الفرد، كما على مستوى الجماعة، مستمدة من النظام الزمني المطلق، ولا يُعد الإنسان شيئاً إذا ما قيس بالزمن المقيد، على حين أنه، بالقياس إلى النظام الزمني المطلق، عظيم وخالد، بل هو أعظم من الكون الخاضع للنظام الزمني المقيد الزائل، ولعل عظمته هذه إنما تظهر لنا في حقيقتها غير متناهية، لأنها نابعة من النظام المطلق الذي يحمله في داخله بالقوة من جهة النفخة الإلهية والإشهاد والاستخلاف والعبودية، وهو ليس بحاجة إلى اكتسابها، وإنما هو بحاجة، فقط، إلى اكتشافها ومعرفتها وتحقيقها. وعلى ذلك فإن الله واجب الوجود بذاته، على حين أن الإنسان، من بين كل المخلوقات

الممكنة الوجود، واجب الوجود بغيره، وذلك لاستمداده معنى وجوده الحق من الله.

وبناء على ما تقدّم، فإن الإنسان بين نظامين: نظام الزمن المقيد، ونظام الزمن المطلق، والأول تابع للثاني، وهو في الوقت نفسه أداة الإنسان في تحقيق الثاني، ولذلك هو بين شقاء وسعادة، وخير وشر، وكفر وإيمان، بحسب قدرة الإنسان على تغليب واحد من النظامين على الآخر. ومن هنا تبدو لنا ظاهرة مسؤولية الإنسان في أن يكون فاعلاً في وجوده، لا منفعلاً فيه بغيره، ممن لا يملك ذلك المستوى من الوجود، فالجنة منازل ومعارج يرقاها الإنسان بحسب مكانته وأعماله في الزمن المقيد/الدنيا، وأعماله في الدنيا إنما تقررها معارج من نوع آخر، وهي خاصة بالذات، فكلما ارتقى الإنسان في معارج معرفة ذاته، كانت أعماله أجمل وأفضل، وهو ما يعني أن منزلته في المطلق/ الآخرة أرقى وأعلى. ولعل أرقى المراقي هي رؤية وجه الله عزّ وجلّ، وهو مرقى لا يدركه إلا من بلغ الكمال في معرفة ذاته في الدنيا، وكان عمله بحسب هذه المعرفة.

الإنسان مكلف ومسؤول بالنفخة الإلهية والإشهاد والعقل، وقد أهّله الله بالقوى الضرورية التي تمكنه، إذا ما أحسن استخدامها، من تحقيق تلك المسؤولية، ووهبه من العمر في الزمن المقيد ما هو كفيل

بتمكينه من ذلك، فإنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾.[٤]

أنت مكلف ومسؤول، ولديك قوى تساعدك في تحقيق التكليف: الجوارح والعقل ومجمل الجسد وقواه، وهي في خدمتك ما دمت في الزمن المقيد بإرادة الله وفضله، ولكنها لن تكون كذلك عندما تعود إلى الزمن المطلق، بل ستكون شاهدة عليك وحجة ضدك، فاعرف كيف تقف أمام الله يوم يتبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا. فكن أنتَ أنت، كما خلقك الله وأرادك له، **فتكون واحداً في المليون**. ولا تكن أنت غيرك، كما يريدك من إذا أطعتهم أضلوك عن سبيل الله، **فتصبح واحداً من المليون.**

رابعاً: العلاقة بين الزمنين المطلق والمقيد

ليست المسألة مسألة زمن مطلق أو مقيد، إنما هي، في الحقيقة، قضية وجود أو لا وجود، فإما أن تكون موجوداً على الحقيقة، وإما أن يكون وجودك وهماً، وليته كان كذلك، إذن لاستويت والحيوانات، ولكنك مكلف ومحاسب على ما تفعله في الوجود الذي وهبك الله إياه لتكون في أعلى عليّين، أو في أسفل سافلين. لو كنت عَرَضاً فقط، كباقي

[٤] البقرة/٢٨٦.

المخلوقات، لهان أمرك، ولكنك عَرَض وجوهر، وإنما أنت إنسان بالجوهر وليس بالعَرَض، ولو كنت إنساناً بالعَرَض، لما كان بينك وبين الحمار فرق. وجوهرك مناط تكليفك، وعَرَضك آلتك في تحقيق هذا التكليف بالعبودية والاستخلاف. ولما كان الأمر كذلك، فقد أصبح الزمن المطلق فيك، فارتبطت به من جهة عَرَضك، ولكن عَرَضك هذا ليس مستقلاً عن جوهرك، وإنما هما متداخلان، متمازجان إلى درجة يصعب التفريق بينهما عند أغلب من يدركون وجود الجوهر فيهم، ولذلك فقد تداخل الزمن المطلق بالزمن المقيد في وجودك، كتداخل جوهرك بعَرَضك، فأنت لا تستطيع أن تعيش أحدهما إلا من خلال الآخر. أما إذا كنت ممن لا يدركون وجود الجوهر فيهم، فإنك لن تعرف وجود الزمن المطلق، وسوف تعيش بعَرَضك في الزمن المقيد الذي أنت فيه الآن في المرحلة الرابعة من الوجود، وتحس بهذا الزمن لأنه من جهة عَرَضك/جسدك، ويغيب عنك الزمن المطلق لأنه من جهة جوهرك/ذاتك، فلا تدركه لأنك تهمل هذا الجوهر، ونسبة وعيك هذا الزمن بحسب نسبة وعي جوهرك، ونسبة جهلك به بحسب نسيانك لهذا الجوهر.

إن إدراك الزمن المطلق مرتبط بوعي ذاتك، ولما كانت هذه الذات سبب الوجود وغايته، فقد اقتضى أن يكون ذلك الزمن سبب وجودك وغايته أيضاً. وإذا كان جوهرك يحيط بعَرَضك، ويتقاطع معه في كل

وجوده، وهو سبب هذا الوجود، فإن الزمن المطلق يحيط بالمقيد، ويتقاطع معه في كل جزء من الثانية، وهو سبب وجوده، فلا زمن مقيد من دون مطلق، ولا يمكن أن يوجد لولاه، وهو آنيٌّ وزائل، كما أن عرضك آنيّ وزائل، على حين أن المطلق أزليٌّ ودائم، كما أنّ جوهرك أزليّ ودائم. وحتى يبدو الأمر واضحاً، يمكنك أن تتخيّل حياتك ممثّلة بخط أفقي قصير، هو جزء من خطٍّ طويل، هو صورة الزمن المقيد، وأن هذا الخط تتقاطع معه، في كل نقطة من نقاطه، خطوط طول لا متناهية تحيط به وتهيمن عليه، فلا تجد لحظة في حياتك تخلو من تقاطع مع الزمن المطلق، ولكنك لا تحس به، ولا تستطيع أن تعيه أو تعيشه إلا في لحظات معينة، يمكن أن نطلق عليها ما اتُّفِق على تسميته بالكشف الصوفي، الذي يرافقه انبهار ينتج عن عجز العقل عن إدراك العقل طبيعة ما يجري، فيصاب اللسان بالعي، وتبطل حاسة البصر والسمع، فلا ترى، ولا تسمع، ولا تتكلم، لأنك أصبحت في عالم الكمال المطلق. إلا أنك عندما تعيش هذه التجربة بشكل متكرر، فإنك سترى أن هذه اللحظات سوف تتمدّد لتصبح أطول، وتدرك أن نقاط التقاطع بين الزمنين أزلية وآنية في وقت واحد: أزلية إذا ما نظرنا إليها من الداخل من جهة عيشها ووعيها، وآنية إذا ما نظرنا إليها من الخارج. إن هذه النقاط تبدو من الخارج مجرد لحظة من الزمن المقيد، ولكنها في الداخل تبدو شفافة، وناصعة، ومشرقة، وعامرة بالوعي الذاتي،

يهيمن فيها السلام والسكينة، والسعادة، والأمان، والشعور بالرضى والفرح. إلا أن هذا كله لن يكون موجوداً أو مدرَكاً إلا عند من أقرّ بوجود الذات، وآمن بانتمائها إلى الزمن المطلق، أما من لا يؤمن بهذا، فمن العبث محاولة مساعدته ليكون إنساناً على الحقيقة.

ولا تظنّنَّ أنك مستطيع الخروج من المقيد، هرباً إلى المطلق، لأن الزمن المقيد مرتبط بالمكان ومتقاطع معه، فلا مكان بلا زمن، ولن تتمكن من الخروج من المكان إلا عندما تخرج إلى الزمن المطلق في المرحلة الخامسة من وجودك. إنك خاضع، في كل مكان، وفي كل لحظة من وجودك، وفي كل خلية من خلاياك، إلى تقاطع الزمن المطلق، فهو يحيط بك إحاطة لا تمكّنك أبداً من الإفلات منه وإذا كنت لا تشعر به، فليس لأنه غير موجود بل لأنك لا تعي وجوده، أما إذا عرفت ذلك بمعرفتك بذاتك، فإنك ستدرك وجوده، وتعيش، في كلّ لحظة، ذلك التقاطع الذي يجعل منك إنساناً إلهياً، فتكون أسد الله في أرضه.

حين يتم اختراق الزمن المقيد إلى المطلق يجب إلقاء القبض على هذه اللحظات التي يتقاطع فيها الزمنان، وهي لحظات قصيرة جداً، وفي قمة التوتر والجمال.

إنّ مَثَل تقاطع الزمنين في حياة الإنسان كمثل بحيرة يسقط عليها المطر، فالتقاطع مستمر في كل لحظة، لكن الإنسان لا يشعر به لأنه في

الأعماق التي تمثل المقيد، وحينما يقترب من السطح سيراه، إلاّ أن الأمر سيكون رائعاً عندما يُخرج رأسه من الماء ليتلقى القطرات، والأكثر روعة أن يطفو على سطح البحيرة، فيتلقى حبات المطر في كل جزء من وجوده.

ولا يمكن إلاّ أن نسلّم بحقيقة أن هذا التقاطع ليس خاصاً بالإنسان فقط، وإنما هو عام وشامل، فلا موجود في الكون، لا يخضع لهذا التقاطع الذي هو بالنتيجة موجود في كل مستويات الوجود وأنواعه، والحياة وصورها، الجمادية والنباتية والحيوانية، فهو مواز للنظام الإلهي الساري في الكون، يخضع له كل موجود، وهو بذلك نوع من البرنامج الحاكم لسير الموجودات في وجودها وحركتها، كلٌّ بحسب نسبته من الوجود. إنّ هذه الحقيقة توحّد بين الوجود الإنساني ومفردات الكون، فلا يشعر الإنسان بالغربة عنها، ولا يرى فيها إلا مخلوقات سامية تسبح الله الذي سخّرها له، تكريماً لاستخلافه في الأرض، فلا يضع نفسه في صراع معها، وإنما في تناغم وانسجام يساعدانه على تحقيق وظيفته في الوجود.

ولمـاّ كان الزمن المقيد مرتبطاً بالمكان المحدد، وبالقَبْل وبالبَعْد، وله نظامه الخاص به، على حين أن الزمن المطلق مستقلّ عن هذا المكان، وإن تقاطع معه، فإنك بوجودك العَرَضي مقيّد بالمحدّد، وبالقَبل والبَعْد، على حين أنك بوجودك الجوهري حرٌّ لا يقيدك شيء من علائق الزمن المقيد، إلا بما ارتضيته أنت لذاتك، وقبلت بالخضوع له، وعلى هذا، فأنت حرٌّ، أو

عبدٌ، بحسب وعيك لوجودك الحقّ، وتحقيقك له على الحقيقة. فأنت خالد مطلق الحرية من جهة جوهرك، فانٍ مطلق التقييد من جهة عَرَضك، فاحرص على حريّتك تكن عبداً لله على الحقيقة، أما إن حرصت على عبوديّتك، فلا تلومنَّ إلا نفسك.

إن جسدك تابع للنظام المقيد الصادر عن الزمن المقيد، كما أن جوهرك تابع للنظام المطلق المنبثق عن الزمن المطلق، وأنت ترى جسدك لأنه موجود بالفعل، على حين أنك لا تدرك جوهرك لأنه موجود فيك بالقوة. فإذا علمت أنك إنسانٌ بالجوهر، وليس بالجسد، عرفت أن مدى رقيّك في إنسانيّتك متعلق بقدرتك على وعي جوهرك، وعيشه في إطار الزمن المقيّد، فيصير رقيباً عليه وحَكَماً، ويصبح الثاني تابعاً للأول وخادماً له.

ولعل أسمى درجات الرقي التي يمكن أن يكافأ عليها الإنسان في حياته الدنيا هي إدراكه لحظة التقاطع بين الزمنين وعيشها، إذ إنّ هذا الإدراك موازٍ لإدراك من نوع آخر هو إدراك التقاطع بين الذات/الجوهر، والعَرَض/الجسد، بل هو هو، فالعلاقة بينهما علاقة وجود، لا ينفصل فيها الأول عن الثاني. ولعل جمال هذا الإدراك إنما يتجسد في الواقع، عندما يجعل حياة صاحبه مليئة بالسعادة والفرح والسكينة، فيصبح هو مشكاة

تفيض بالنور والخير على من حوله، فيستدفئون به، ويستنيرون بنوره، ويغسلون قروحهم ببلسمه، فيكون رسولاً وخليفة على الحقيقة.

وبقدر وجود الجوهر بالفعل، يتحوّل الوجود الإنساني إلى وجود مطلق يحرره من قوانين المقيد، ويحتكم في وجوده المقيد إلى قوانين النظام المطلق، فتصبح حياته سعادة أبدية، إذ لم يعد من فرق بين الوجودين: الجوهر والعَرَض، أو المطلق والمقيد، أو الآخرة والدنيا.

خامساً: الإنسان والزمن المطلق

لقد أصبح من الثابت يقيناً وجود الزمن المطلق عند من يؤمن بالله، وإن كان أكثر الناس لا يتمكنون من وعيه وعيشه لغلبة الزمن المقيد على وجودهم. فهل من الممكن إدراك ذلك الزمن؟ وهل من الممكن عيشه؟ وكيف يكون ذلك؟

إن معرفة الغاية أو الفائدة من وعي الزمن المطلق وعيشه هي التي تحدّد إمكانية وعيه أو عيشه بين الناس. ولاشك في أن تلك الفائدة إنما تنبثق من قانون نفي العبثية عن الوجود في العقيدة الإسلامية، وعلى ذلك فإدراك الزمن المطلق أو عيشه ليس للذّةٍ ذهنية، أو لمتعة عقلية، أو لفذلكة فلسفية لا تشبع إلا الرغبة بإظهار القدرة على توليد المفهومات وليّ دلالاتها، وإنما هو لمنفعة الإنسان وسعادته، وتحقيق الصفات الإلهية فيه من خلال خضوعه لنظام الزمن المطلق.

ليس من الممكن لكلّ الناس تحقيق ذلك، بل هم غير مكلّفين بهذا، ويكفيهم في أمور دنياهم خضوعهم لقوانين الشريعة التي صدرت عن المطلق لإصلاح المقيد وضبطه، ليكون الإنسان فيه قادراً على الوصول إلى الغاية المرجوّة من إدراك الزمن المطلق وعيشه، فالله تعالى يعرف من خلق، ويعلم أن الناس غير قادرين على إدراك الزمن المطلق وعيشه، ولذلك فقد وضع لهم الشريعة التي جاء بها الأنبياء الذين ما هم إلا رسل

بين المطلق والمقيد، فمن اتبع الشرائع فقد وصل إلى الغاية نفسها، ألا وهي السعادة في الدارين. وعلى ذلك فقد اقتضى ربط الدين بالدولة التي هي حارس الدين، والدين أُسّها، لتصبح الشريعة _ قانون المقيد الصادر عن المطلق _ الوسط الصالح الذي يصلح الناس.

ولعل مَثَلَ من سار على درب الشريعة، ومن سلك طريق التفكّر والتأمّل، والمحبة والعشق، والفتح الإلهي، كمَثَل من ركب قطاراً يسير على سكة توصله إلى الهدف من غير أن يفكر في طريق أخرى، و لا يتكلف عناء التفكير بالطريق، ومَثَل من حلّق طائراً فوق هذا القطار، فسبقه أو تقدم عليه، وهو يسير في الاتجاه نفسه نحو الغاية عينها، فإن رأى راكبُ القطار من يطير فوقه، أنكر عليه ذلك، وسأله أن ينضم إليه، فإن أجابه من يطير: "إنني أطير نحو الغاية نفسها، وأنا في الاتجاه نفسه، وعلى السكّة ذاتها/الشريعة، إلا أنني اخترت الطيران، فهو أسرع، ويمكّنني من رؤية ما لا تراه، ويجعلني أفعل ما أفعل باختياري، ولو لحقت بي لكان أرقى لك، وإن كنت لا ألومك على ما أنت فيه"؛ لامه على قوله هذا، واتَّهمه بالخروج على الشريعة والمروق من الدين.

وإذا عرفنا ذلك تبيّن أنَّ سُبل وعي الزمن المطلق وعيشه متعددة، ولكنها جميعها توصل إلى الهدف ذاته، ويمكن إعادتها إلى طريقين اثنين: الأول هو التفكر في خلق الله في ضوء العقيدة الإسلامية، والثاني هو

الفيض الإلهي الذي يمكن التعبير عنه بالكشف، أو بالعلم اللدني. ونقصد بالأول تحقيق ما حضّ عليه القرآن الكريم من التفكّر في ملكوت الله، وتدبّر آياته في الكون، وفي النفس الإنسانية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[٥] فإذا ما أدرك الإنسان ما في آيات الله في الآفاق، وفي نفسه؛ أيقن بوجود الزمن المطلق. أما الثاني فيتطلّب، بالإضافة إلى العبادات، رياضات خاصّة، وخلوة تساعد الإنسان على التأمّل في ذاته لمعرفتها، وإدراك كنهها، ليعرف أنها تنتمي إلى الزمن المطلق، وتخضع لقوانينه، فيعمل على رعايتها والرقي بها، وكلما ازدادت معرفته بذاته، زادت قدرته على عيش الزمن المطلق في إطار المقيّد. إلا أنّ وعي الزمن المطلق وعيشه أمران نسبيان وجدليّان في آنٍ معاً، ومختلفان من إنسانٍ إلى آخر بحسب العمر والزمن والمكان والثقافة.

إذا استطاع الإنسان عيش الزمن المطلق، امتلك قوى لا تتوفّر عند الآخرين، بحسب الحديث القدسي: "... وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني

---

[٥] فصلت/٥٣.

لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه".[٦] تلك هي القوى التي يمنّ الله بها على عبده الذي يتقرّب منه حتى يحبه، وهي قوى خاصة بالزمن المطلق، بها يرقى العبد على قوانين نظام الزمن المقيّد، بفضل الإرادة الإلهية.

إنّ هذا الحديث يبين لنا سبل وعي الزمن المطلق وعيشه، نعني بذلك الفضل الإلهيّ، إذ مهما تقرّب العبد إلى الله بالعبادات والنوافل، وألحّ فيها وأكثر منها، ما تمكّن إلا من تحقيق درجة الاستعداد لتلقّي الفضل الإلهي. فإذا ما أحبّ الله عبداً، أفاض عليه بوعي الزمن المطلق وعيشه فيعطل له قوانين الزمن المقيد، حتى يصبح العبدَ المؤمنَ الذي ينظر بنور الله باتباعه العقيدة الإسلامية، وتلقي الفيض الإلهي.

إن اتباع النظام الإلهي/العقيدة في الزمن المقيد، ووعيه والعيش فيه، يهب الإنسان القدرة على معرفة النظام الإلهيّ في الزمن المطلق، فيرى التشابه بين النظامين من خلال سيادة النظام الإلهيّ فيهما معاً. وعندما لا يتحقّق هذا النظام في حياة الفرد والجماعة، فإن الصفات الإلهية المتجلّية في الإنسان، من خلال النفخة، تتحوّل إلى عكسها، فيصبح العدلُ ظلماً، والرحمةُ قسوة، والمحبةُ بغضاً، والإيمان كفراً، فإذا كان الإنسان كذلك، تعطّلت لديه القدرة على وعي النظام الإلهي في الزمن المطلق، فكان كالحيوانات، بل أضلّ سبيلا.

---

[٦] صحيح البخاري، الحديث رقم ٦٠٢١.

إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان سدى، فإن نسي الإنسانُ ربه، فإن الله لم ينسه، إذ وضع فيه قوة تقوده، إذا ما استخدمها، إلى وعي الزمن المطلق وعيشه في إطار المقيّد، تلك هي قوة العشق، أقوى السبل الموصلة إلى هذا الزمن. فالعشق قوة إلهية في الذات الإنسانية، بها يعرف صاحبها ذاته وربه، وبها يصبح إلهياً. فبالعشق وحده، بعد العبادات المفروضة والنوافل، يتمكّن الإنسان من دخول الزمن المطلق، إذ إنّ الذات الإنسانية عاجزة عن فعل هذا وحدها، وذلك من جهة نقصها، وكمالها في عشق ذاتٍ ما، تكون كلٌّ منهما كمالاً للأخرى، فتسموان معاً، وتتصلان بالجمال المطلق مصدر كلّ الجمالات، وتوجدان معاً في حضرة الخير المطلق، والقوة المطلقة، فتستمدّان منه خيرهما وقوتهما، فتعيشان في الزمن المقيّد باتّساقٍ وانتظام، وتحققان التوازن بين الزمنين، ليكون الزمن المقيد، الفرع، في خدمة الزمن المطلق، الأصل، ويصبح الإنسان باتصاله بهذا الزمن قوياً، حراً، سيداً، تهابه الملوك، ولا يهاب أحداً إلا الله، ولا يرجو أحداً سواه، ولا يطلب العزة والرزق إلا منه، فيكون خليفته في أرضه على الحقيقة، حراً بعبوديته لله سبحانه، قادراً، أيما قدرة، على إعمار الأرض وتحقيق معنى الاستخلاف..

إنّ من لم يعرف الزمن المطلق، ينكره على من عرفه. والناس بين منكرٍ لهذا الزمن، أو مسلّمٍ به من غير معرفة، وعارفٍ به من غير عيشه،

وعارفٍ به متمكّن من ذلك، فهم بين مَن لم يعرف ولم يذق، ومن عرف ولم يذق، ومن عرف وذاق، وشتان بين هذه المراتب على اختلاف كلّ مرتبة بين سالك وآخر فيها. ويأتي الكشف الصوفيّ دليلاً على إمكانية وعي الزمن المطلق وعيشه، وما هذا الكشف إلا عيشٌ للتقاطع بين الزمنين، تسقط فيه قوانين المقيد، وتسود قوانين المطلق، فتتلاشى قيمة المادة، وتتحوّل إلى أداة بدلاً من كونها غاية، ويضمر الزمن والمكان، ويختلف التقييم فيه عنه في الزمن المقيد، لسقوط الحجب عن الماضي والحاضر والمستقبل، فينظر من يدخل في هذه الحالة بنور الله، كما هو بيّنٌ في قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام، إذ ينظر موسى إلى قتل الطفل، وبناء الجدار، وخرق السفينة، من خلال قوانين الزمن المقيد، فيرى أنها شرّ، يعجب له، على حين أن العبد الصالح يتعامل معها من خلال قوانين الزمن المطلق، فهو يعيش فيه، ويقيس أحداث الزمن المقيد على قوانينه، فتصبح خيراً وقد بدت شراً، ويتحقّق ما ورد في الأثر: "لو اطّلعتم على الغيب، لاخترتم الواقع". فالعبد الصالح في القصة يجسد تجربة الذات المطلعة على المطلق، لأنها منه، وذاكرتها ممتدة من الأزل إلى الأبد، وما تفعله لا تفعله عن أمرها، وإنما بأمر الله، على حين أن موسى عليه السلام، يمثل ذاكرة المقيد المحدودة بالزمن والمكان، فهو يستنكر ما قد ترضاه الذات وتطلبه

منه، لأنه بذاكرته محدود بالزمن والمكان، والقوانين الاجتماعية التي نشأ فيها، وكونت ذاكرته الصغيرة.

وفي أحوال الكشف الصوفيّ ثمّة حالات وجدانية تترافق ولحظات هذا الكشف، يسميها الناس بالشطح، وهي كذلك، لأنهم ينظرون إليها من خلال قوانين الزمن المقيّد الذي تعودوا على العيش فيه، فلا يرونها من خلال قوانين الزمن المطلق، لغربتهم عنه.

ولعلّ هذا ما يقودنا إلى تقرير حقيقة أن أكثر الناس يعيشون تداخلاً بين النظامين، على غير وعيٍ منهم، لأن النظام المطلق كائن فيهم بالقوة من جهة النفخة، والإشهاد، والأسماء، وهي أمور مشتركة بين البشر جميعاً. والتناقض الحاصل لديهم في مواقفهم وأحكامهم وأنواع سلوكهم، هو من جهة أنهم لا يميّزون بين الزمنين، وهم، لغلبة النظام المقيّد عليهم، يعاملون المطلق، أو يفهمونه ويفسّرونه من خلال قوانين المقيّد، على حين أن العكس هو الصحيح.

إن هذا الخلط، أو التداخل، هو مصدر الشّك لديهم، وهو مصدر الصراع بين النزعة المادية، أو الطبيعية، أو العلمانية والدين، وهو من جهة أخرى مصدر رفض ما يسمى بالشطح أو الكرامات، عند بعض المسلمين أنفسهم ممن لا يؤمنون إلا بالعقل، نافين بذلك تلك القدرات التي وضعها الله في الإنسان بحكم العبودية والاستخلاف، مختزلين الوجود الإنساني

إلى ما يتّصل به العقل من طريق الحواسّ، ناسين حقيقة أن الحواسّ قاصرة عن الاتصال بأمور وأشياء أكثر بكثير مما مكّنت من الاتصال به منها، وهو ما يجعل العقل قاصراً عن إدراك ما لا يقع تحت طائلة الحواس، وأنّ هذا الإدراك نسبيّ، يختلف من شخص إلى آخر، ومن زمن إلى آخر عند الشخص نفسه، فكيف يحكّمون العقل بتلك القدرات اللدنّية، وهي لا تقع تحت طائلة الحواسّ أو العقل؟!

ثمّة نظامان كونيّان مختلفان: الأول نظام مطلق، يتبع الزمن المطلق، والثاني نظام مقيّد، خاص بالزمن المقيد. ولكلّ نظام قوانينه الداخلية الخاصة به التي تحكمه وتنظّم الوجود الإنساني فيه. ولا يجوز الحكم على الأول بقوانين الثاني، على حين أنه يجب أن نقيس الثاني، وأعمال الإنسان فيه على قوانين الأول، وما القوانين التي جاءت بها الشرائع السماوية في النظام المقيّد إلا تحقيقاً لقوانين النظام المطلق. ومعظم القوانين الوضعية في ذلك النظام خروج على قوانينه، وهي مصدر خرابه ودماره على يد الإنسان، وهي نفسها التي تصنع الوسط غير الفاضل الذي يعيش فيه الناس بعيداً عن جواهرهم. ولو سادت قوانين النظام المطلق في النظام المقيّد لاستطاع الإنسان أن يعيش في وسط فاضل يمكنه من تحقيق الغاية من وجوده، ولأن هذا غير متحقّق، فقد كان معظم الناس يعيشون في ضلال، يقول الله عزّ وجل ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن

سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.[٧] فطاعة الإنسان للناس بالدخول في قوانينهم الوضعية، تبعده عن قوانين الله المتمثّلة بالنظام المطلق، وتوقعه في الضلال.

وعندما يحاول الإنسان عيش المطلق من خلال المقيّد، ويفترض أنه جزء منه، لا بدّ له من أن يقع في التناقض، فيفسر المطلق من خلال معرفته بالمقيد، ويتعامل مع الله تعامله مع صور عالم المقيد، ويفسّر قوانينه في ضوء قوانين المقيّد. ولا بدّ لنتمكّن من تصحيح العلاقة بينهما من الاعتراف باختلافهما وتبعيّة المقيد للمطلق، وإلا فإننا سنقع في ما وقعت فيه الفلسفات الماديّة التي لا تقرّ إلا بوجود النظام المقيد وزمنه، وتنكر المطلق لأنها تنظر إليه من خارجه، فلا تراه إلا من خلال المقيد، وهو ما يدفعها إلى تقرير أنه عالم متوهّم لا حقيقة له. كما أننا لسنا مع الفلسفات التي تنكر العالم الماديّ/النظام المقيد، وتعتبره وهماً، لأنها تنطلق في التعامل معه من مشاهدة اللحظة الأزلية الزمنية من الداخل، وهو ما تردده المقولات الصوفية، فتكون النتيجة إسقاطاً للعمل والسعي، فلا يتحقق معنى الاستخلاف على الحقيقة، مبطلةً بذلك حرية الإنسان وإرادته، ومبشّرة بلا مسؤولية الإنسان، وبأنه مسيّر، مطلقاً، بالإرادة الإلهية، داعيةً إلى أن الفردية وهم وعبث، نافية الوجود المستقلّ للذات الإنسانية،

[٧] الأنعام/١١٦.

ومدعية أن غاية الإنسان هي الاندماج الكلي في الوجود، كما تندمج القطرة الضئيلة في البحر الخضمّ الواسع، مما يعني فناء الذات وذوبانها وانهيارها، وما يترتّب على هذا كله من خمول الحياة وانعدام العمل، والاستسلام للضعف والوهن في الأمة.

إننا نعتقد أن سعادة الإنسان، وتحقيق توازنه الداخليّ، وقيامه بوظيفته التي خلق من أجلها، يقتضي الجمع بين النظامين، فيعيش الإنسان المقيّدَ من خلال المطلق، لأن تحقيق وظيفة العبودية والاستخلاف لا يمكن أن يتم إلا من خلال المقيّد وقوانينه، إلا أن الغاية من تلك الوظيفة يحدّدها المطلق، الذي هو بحدّ ذاته غاية الوجود الإنساني، بدليل قوله عزّ وجل: ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ ﴾.[٨] ولا يمكن للإنسان أن يعيش نصيبه من الدنيا إلا في ضوء ابتغاء الدار الآخرة، ولو كان غير ذلك، لبطل الشطر الأول من الآية الكريمة، وكان المطلق في خدمة المقيّد بدلاً من أن يكون هو في خدمة الأول. ولعلّ واقع أغلب الناس يتجسّد في عكس هذه الآية، فيبتغون بما آتاهم الله الدار الدنيا، ولا يعيشون نصيبهم من الآخرة، بل إن أغلبهم ينسى هذا النصيب.

---

[٨] القصص/٧٧.

كان الإنسان، وما يزال، هدف الخلق الأول، وكل ما عداه من مخلوقات الله في الكون المادي، من كواكب، ونجوم، وجماد، ونبات، وحيوان، إنما سخّرت له. وهو، في صدوره بجرمه الترابي عنها، ومشاركته لها في العناصر الأربعة، يتلقّى منها طاقة تتحوّل فيه إلى فعل يمكّنه من تحقيق وظيفته في العبودية والاستخلاف. وما أشبه الجسد البشري في مجموعه بلوحة حساسة تشبه "البطارية" الضوئية التي تتلقى تأثيرات شتى من الكون، والطبيعة، والنبات والحيوان، تحوّلها إلى طاقة هي أرقى ما يمكن تصوّره في مجال تحوّل المادة إلى طاقة.

إنّ الطعام والشراب والهواء والضوء، وما يتفرّع عنها ويشابهها، من عناصر طبيعيّة، كالجاذبية الأرضية والضغط الجويّ، وما تتلقّاه الأرض من إشعاعات صادرة عن الشمس وباقي الكواكب، ما هي في مجموعها إلا طاقة إلهية متمثّلة في عالم المادّة، يستمدّها الجسد الإنساني من الزمن المقيّد لتحقيق وظيفته التي خلق من أجلها على أفضل وجه، وكلّما كان الجسد أقدر على استقبال تلك الطاقة الإلهية، وعلى حسن استخدامها، كان أقدر على تحقيق وجوده، بتحقيق وظيفته.

إن الماء الذي تشربه يومياّ من غير تفكير، ما هو إلا واحدٌ من عناصر الطاقة الكونية التي سخّرها الله لك، وقد اشترك في إعداده، من أجلك، جند لله لا يحصون، ابتداءً بالمحيطات، والبحار، والبحيرات،

والأنهار، والشمس التي تعمل حرارتها على تحويل الماء إلى بخار يتصاعد بعيداً عن الجاذبية الأرضية، ليشكّل غيوماً تحت تأثير درجات الحرارة المتفاوتة بين سطح الماء والارتفاعات المتفاوتة. وتأتي الرياح لتسوق هذه الغيوم إلى أماكن بعيدة، لتتحوّل تحت تأثير جند من جنود الله آخرين إلى مطر يهطل، فيروي الأرض، ويتخللها ليعود إلى سطحها ينابيع، ماؤها سائغ للشاربين. إن كأس الماء التي تشربها على مائدة إفطارك هي نتيجة كل هذا الجهد العظيم الذي بذله جند كثر من جنود الله. وأنت عندما تشربها، فإنك لا تعي أنك بذلك تمدّ جسدك بطاقة إلهية تتغلغل في أنحاء جسدك، فتصل إلى كلّ خليّة من خلاياه، لتتحوّل فيها إلى طاقة تمدّك بالقدرة على الحركة والعيش. ولعلّ هذا الماء الذي شربته يعتزّ بأنّك شربته، وأنه أصبح جزءاً منك، إذا كنت عبداً لله شكوراً، فيشاركك تسبيحك وحمدك، كما يشاركك فعلك الخير وعبادتك، فيتحول فيك إلى طاقة منسجمة أشدّ الانسجام مع حركة خلاياك، لأنه، هو وهي، من جند الله، حقّقا معاً انسجاماً رائعاً يساعدك على تحقيق وظيفتك. أما إذا لم تكن كذلك، فإن هذا الماء لن يكون في حالة انسجام فيك مع خلاياك، وسيكون مصدر قلق واضطراب فيها، يولّد أمراضاً قاتلة، ويتمنّى لو أنّ حيواناً ما شربه، لكان في حال أفضل.

إلا أن ثمة نوعاً آخر من الطاقة الخفية صادرة عن النظام المطلق، يتعرّض لها الإنسان باستمرار، لإحاطتها إحاطة النظام المطلق بالمقيد، ومتقاطعة معه تقاطع المطلق والمقيّد، ولكنه لا يكتشفها، لأن قدرته على استقبالها وفكّ رموزها غير فعالة لأسباب عديدة، خارجية وداخلية، منها ما يتعلّق بمعرفة الذات وشفافيّتها وقدرتها على التجلّي، وهو ما يتفاوت من إنسان إلى آخر، ومن زمن إلى آخر بحسب العمر والتجربة والمعرفة والفيض الإلهي، ومنها ما يتعلّق بالواقع الذي يعيش فيه الإنسان، ومدى إشغاله له عن ذاته، وتشتيته إياه، وجعله يعيش دائماً في الخارج.

وإذا كانت الطاقة الصادرة عن المقيّد خاصّة بالجسد/العَرَض، فإن الصادرة عن المطلق خاصة بالذات/الجوهر، والذات وحدها، بحسب تجوهرها أو تجلّيها، قادرة على تلقّي هذه الطاقة وتحويلها إلى فعل بآلة الجسد. فإذا ما تضافرت الطاقتان وتكاملتا، أصبح الإنسان إلهياً، وأصبح وجوده كله خيراً ومحبّة، فلا تمتدّ يده للأذى، ولا ينطق لسانه إلا بالحقّ، ولا تسعى قدمه إلاّ لما فيه صلاح له وللأمة. وهذه الطاقة الآتية من الزمن المطلق ليست غريبة على الإنسان، لأنها محيطة به، ومتقاطعة معه، ومتداخلة مع الطاقة الآتية من الزمن المقيّد. وهي موجودة فيه بالقوة، إذ إنها الفيض الإلهي الذي ما توقّف منذ خلق الله الكون، فهي النفحات التي تكلّم عليها محمد عليه الصلاة والسلام، وليس علينا إلا أن نتعرّض

لها، ونبحث عنها بعين القلب لنراها، فنستقبلها، لتتحوّل فينا إلى قدرة تحرّك أجسادنا، وتقودنا إلى الغايات التي خلقنا من أجلها.

وقد تجسّدت هذه الطاقة في الأنبياء، وبدت في معجزاتهم، فبها خرج إبراهيم من النار سالماً، وأبطل موسى سحر السحرة، وفهم سليمان لغات الحيوانات، وإليها يعود الفضل في شفاء المرضى، وإحياء الموتى على يد السيد المسيح، وهي التي تفسر معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أنها هي التي تقف وراء كلّ كرامات الصالحين من أولياء الله وعباده المخلصين.

نحن محاطون بتردّدات الزمن المطلق، بدليل قول الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ... ﴿٣٥﴾ ﴾[٩] والنور الإلهي ينفذ إلى كلّ شيء وفي كلّ شيء، وما النور إلا الطاقة المحركة للكون بأجمعه، فهل يصحّ ألا تحرّك الإنسان؟ إن العَرَض يشارك الجوهر في ما يستمده من طاقة من الزمن المقيد، على حين أن الجوهر ينفرد في استمداد الطاقة من المطلق، وهو بذلك أبسط من العَرَض، ولذلك فإن طاقة الجوهر المستمدّة من المطلق تؤثّر في الجسد المركّب، فتحيله جوهراً لملازمته لها، وحينها يشفّ هذا الجسد، وتكشف الحجب الكثيفة عنه، فيرى تجلّيات الله في كلّ شيء،

[٩] النور/٣٥.

فلا يغيب عنه أبداً: ﴿ ... فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[١٠].

النور الإلهي موجود في كلّ تجلّيات الله عز وجل، ولكنه مدرك غير مرئيّ، وكيف يستطيع أن يراه أو يدركه من نسي "وأشهدهم"؟ إن رؤية النور الإلهي، مصدر الطاقة في الزمن المطلق، يبدأ بقراءة مفردات الكون الذي يمثّل التجلّي الظاهر للصفات الإلهية ونورها. وقلّة من الناس ترى هذا التجلّي الظاهر، وتقف عنده، ولكنها لا تتجاوزه إلى رؤية التجلّي الباطن للصفات الإلهية في مفردات الكون. وندرة من هؤلاء يفعلون هذا، ولعلّ هؤلاء فقط هم من يمثّلون معنى العبودية والاستخلاف في الأرض على الحقيقة. أوَلم يصف الله أكثر من في الأرض بالضلال والجهل والكفر والفسوق، واختص قلة من الناس بالثناء؟

لقد ارتبط الاستخلاف بإعمار الأرض، أي بالتجلي الظاهر الذي لا بد منه للوصول إلى التجلّي الباطن. فكأنّ الإنسان عندما يعمّر الأرض، يحقّق القدرة الإلهية فيه على الحقيقة من خلال تعامله مع قوانين الأرض، تعامل الذات الإلهية معها، فيصبح هذا التعامل مقدّساً وسامياً، وبخاصّة عندما يرى الإنسان في مفردات الكون تجلّياً إلهياً. فهو عندما يتعامل معها إنما يتعامل مع هذه التجليات الظاهرة. وسوف تكون المعاملة أرقى عندما

[١٠] البقرة/١١٥.

تكون موجهة إلى الإنسان، لأنه يمثّل، بالإضافة إلى التجلّيات الظاهرة، تلك الباطنة. فقد كانت ذات الإنسان مجلى الذات الإلهية من خلال النفخة، كما أن جسده مجلى الصفات الإلهية من خلال الخلق باليدين على الصورة، والتسوية، فإذا ما تعاملنا مع الإنسان، كان هذا التعامل في أكمل صورة، لأنه تعامل مع تجليات الذات والصفات. إنّ العلاقة بين الذات الإنسانية والذات الإلهية علاقة جدلية متصاعدة، تستمدّ الأولى من الثانية ما تفيض به عليها، بحسب قدرتها، التي إنما تزداد وتنقص بحسب تحقيقها لمعنى العبودية والاستخلاف.

الإنسان مجلى الطاقة الصادرة عن الزمن المقيد، وهو هدفها. فالتجلي الظاهر والباطن لا يكون إلا في الإنسان، لأنه عَرَض وجوهر. وجوهر الإنسان مقدّس، لأنه التجلي الباطن: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.[١١] فقد وصف الله نفسه بالشهيد ليذكر بالإشهاد الأول: "وأشهَدَهم" حين شهد الله على الإنسان، كما كان هذا دليلاً على كون التجلي الظاهر إنما هو في الآفاق أو العالم المادي، ومنه جسد الإنسان، وكون التجلي الباطن إنما هو في النفس الإنسانية، ذات الإنسان، وكل ذلك إنما يعني إحالة الوجود الإنساني برمّته إلى الوجود الإلهي، والتأكيد على أنّ

[١١] فصلت/٥٣.

طاقة الإنسان وقدراته ما هي إلا من التجليات الإلهية الظاهرة والباطنة. وبذلك يكون جوهر الإنسان مقدساً، لأنه يمثّل التجلي الباطن، كما يكون جسده مقدساً، لأنه ظاهر هذا التجلّي، والتعامل مع الإنسان إنما هو تعامل مع عين هذا التجلّي، وما ذلك إلا من أرقى أنواع العبادات. فكم سيكون الإنسان عظيماً في تعامله مع الآخر، ومع نفسه أولاً، إذا رأى الإنسان في وجوده، كما في الآخر، مجلى لله عزّ وجلّ في الظاهر والباطن!

خاتمة

الزمن نهر سيَّال يقف الإنسان فيه، من غير وعي، في الغالب، بسيلانه، لارتباط وجوده فيه بثلاثة مستويات: الطبيعة أو الكون، والجسد، والذات، والغالب عليه مستويا الطبيعة والجسد، ولذلك فهو تابع للزمن، وليس الزمن تابعاً له.

لقد أثبت العلم أن ثلاثمائة مليون خلية تولد في جسم الإنسان كل ثانية، ويموت في الوقت نفسه العدد ذاته، ويحتاج الجسد الإنساني إلى شهر لتتجدد خلاياه كلها، باستثناء خلايا الدماغ، وهي ولادة تابعة للزمن الجسدي، لاقيمة لها إن لم يحكمها الزمن المطلق التابع للذات، وعندما يتمكّن الإنسان من العيش في الزمن المطلق، فإن الخلايا التي تولد في جسده تولد في وسط فاضل هيّأته لها الذات المتّصلة بالطاقة الصادرة عن الزمن المطلق، وستكون هذه الخلايا في حالة انسجام تام، تشارك الذات توحيدها لله وتسبيحها له، بانسجام وتناغم يحققان معاً السعادة الداخلية والخارجية للإنسان.

وكلما ارتقى الإنسان في وجوده، كانت الخلايا الوليدة، تحمل ذاكرة الخلايا السابقة، فتبدأ هي من حيث انتهت تلك. وطالما أن معرفة الإنسان بربه وبنفسه تزداد، فإن الخلايا ستكون في حالة رقيّ متصاعد، وهذا يعني أنّ الجسد الإنساني سيكون في أفضل حالاته ليمكّن الذات من تحقيق

وظيفتها. إلاّ أنه، في أثناء ذلك، توجد معوقات تمنع الإنسان من هذا، وهي إما أن تكون داخليّة مرتبطة بالجسد ووظائفه، وهي معوقات لا يمكن إلغاؤها، لأنها جزء من النشأة الطبيعية، وكمال الجسد فيها، وإنما يجب السيطرة عليها وامتلاكها، ، فإذا ما أحسن الإنسان هذا، كانت في خدمة الذات، وآلة لها. وإما أن تكون خارجية مرتبطة بالوجود الاجتماعي وقوانينه وعاداته، ويمثّل ذلك الناس، وهنا، على الإنسان أن يعي أن وجوده هو الأساس، وأن الوجود الاجتماعي لاحقٌ له، فينظر في هذا الوجود، فإن كان لا ينفي أصل وجوده والهدف منه، فبها ونعمت، وإلا فإن عليه أن يعيد النظر في علاقته به، فيحددها وينظّمها لتكون في خدمة الوظيفة التي هو مناط بها. فكلّ ما منحه الله الإنسان من طاقات على مستويي العَرَض والجوهر، يجب أن يكون في خدمة الغاية من الوجود، ألا وهي العبوديّة والاستخلاف، فإن عَرَض للإنسانَ عائق، كان عليه أن يزيله ليكون محسناً للناس، فيساعدهم على أن يكونوا مثله في تحقيق الغاية، أما إن كان ممن يفسدون في الأرض، ويشكلون عائقاً أمام تحقيق الغاية، فأولئك لا يحبهم الله، وأولى بمن كان عبداً لله على الحقيقة ألا يحبهم أيضاً.

إنّ العوائق الخارجية أكثر من العوائق الداخلية، وهما تتداخلان لتشكّلا معاً واقعاً مريراً يعيشه الناس ضلالاً وبعداً عن الله. والحقّ أنّ

العوائق الخارجية ما هي إلا عين العوائق الداخلية، إذ ما المجتمع إلا صورة الفرد، وهي ممثّلة في الصراعات على متاع الدنيا ورغبات الجسد ونزواته وأهوائه. ولا يمكن للإنسان أن يقاوم العوائق الخارجية إلا إذا قاوم الداخلية منها، ولا يفعل هذا إلا عندما يضع مجموعة من القواعد يدرب نفسه عليها، وأوّلها:

• أن يكون على يقين من أنّ خير ولي، وخير نصير له هو الله وحده، وهذا ما يخلّصه من أن يكون رجاؤه لغير الله، وخوفه من غيره، فلا يتعلّق إلا بالله، ولا يخشى سواه.

• أن يؤمن أن غالبية الناس على ضلال، وأنهم سيضلّونه إذا اتبعهم، وأن يعلم أن ديدن الناس تثبيط الإنسان الذي يشعر بزمنه الذاتي، والسعي إلى إعادته إلى ما كان عليه من العمل على منهجهم. يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴿٨٩﴾ ﴾.[١٢] ويقول جلّ جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ

[١٢] النساء/٨٩.

مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ ﴾.[١٣]

• أن يعرف أن ابتعاده عنهم وحذره منهم ليس تكبراً ولا رياءً، وإنما حرصاً على ألا يضلّ بضلالهم، وأن يكون على هدى من الله، ليتمكّن من مساعدتهم على أن يهتدوا، إذ لا بد له، إن أراد هداية الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، من أن يعرف ما الهدى، وأن يميّز المعروف من المنكر، حتى لا يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف، وهو يظنّ أنه يحسن عملاً. ولا بدّ لهذا من المعرفة الضرورية التي تقتضي ضرورة الابتعاد عمن ضلّ عن سواء السبيل. ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.[١٤]

• أن يتخذ العفو والصفح عن الجهلاء منهم مبدأً له، حتى لا يشغل ذاته ويرهقها بأمورٍ لا فائدة منها، ويولي الشطر الأكبر من اهتمامه لتحقيق وظيفته في الوجود. كما أن عليه أن يتذكّر ألا يحزن، ولا يألم إذا ما وجد انصرافاً منهم عنه، أو تسفيهاً من بعضهم له، إذ إنّ هداهم ليس عليه، وما هو إلا رسول يؤدّي البلاغ.

---

[١٣] الممتحنة/١-٢.

[١٤] الأنعام/١١٦.

حين ينتقل الإنسان إلى الزمن المطلق يكون في حالة وجود وشهود دائمين، وفي سكر دائم عن الأعراض، فلا يبقى إلا التجلي الباطن، أما التجلي الظاهر فيكون في خدمة الباطن، فيصبح كل شيء في الوجود بالنسبة إليه لا قيمة له إلا فيما يرضي الله تعالى، لأنه ما من شيء خلق عبثاً، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[١٥] فيصل إلى تحقيق التناغم بينه وبين الوجود والكون، ويدرك أنه مسؤول عنهما، ويتعامل معهما بحسب القوانين الإلهية، معاملة السيد المحب، الكامل، الحنون.

ونتساءل هنا: هل يكفي الزمن الإنساني المقيد لتحقيق كل هذا؟ لقد خلق الله الإنسان، وكلفه بمهمة، وسخر له الكون، ومكنه من أداء هذه المهمة، فلو كانت حياة الإنسان غير كافية لأداء المهمة، كان الله ظالماً، وحاشاه سبحانه، فإنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ... ﴿٢٨٦﴾ ﴾[١٦] ولكن المشكلة هي أنّ الإنسان لا يملك تنظيم وجوده بين الجوهر والعَرَض، ليصل إلى مرحلة يوحد فيها بين الطرفين، هذا التنظيم يقتضي استبعاد كل ما يضر بالوجود، ويخل بأداء الوظيفة، مما يعرض للإنسان من معارف، وعلاقات، وأفعال، وأقوال،

---

[١٥] الأنبياء/١٦-١٧.

[١٦] البقرة/٢٨٦.

وهي أمور تنقسم، بحسب أهميتها للوجود الإنساني، إلى ثلاثة أقسام: إيجابية وسلبية وحيادية، إيجابية عندما يكون كل ما يفعله الإنسان في خدمة الوظيفة، وسلبية عندما يكون ما يفعله يبعده عن تحقيق الوظيفة أو ينسيه إياها أولا يشغله عنها، وحيادية عندما تكون أفعاله لا تقربه من الوظيفة ولا تشغله عنها. على الإنسان أن يكون حكيماً، يملك المعرفة الضرورية ليتمكن من التمييز بين هذه الأقسام، فلا يخلط بينها، فيفعل ما هو سلبي وهو يظن أنه إيجابي أو حيادي، ناسياً أنه سيعيش، ذات يوم، يوماً لا غد له بالنسبة إليه.

الزمن نهر جار، نحن فيه كورقة شجرة لا تستطيع التوقف، ولكنك لو أخرجت الورقة من النهر لظل الزمن يجري، والورقة خارجه، وهذا يمكن تحقيقه مع الذات، فكل شيء على النهر وداخله من أوراق، وغيرها، يسير، أما ما هو خارجه فإنه ثابت. ولو تصورنا شخصاً يسير مع النهر، فهو داخله، ولكنه لو قفز من الماء إلى الضفة، فإنه سيرى الآخرين يحملهم النهر ويستهلكهم الزمن، فهم يولدون، ويشبون، ويشيخون، ويموتون، وهو يراقبهم، لأنه خارج الزمن، فقد أوقف زمنه الخاص به، أما الزمن العام فهو لا يزال يجري. وعلى هذا فإن الإنسان يملك قدرة على الخروج من الزمن المقيد في وجوده، وهي تلك الفترات التي يعيش فيها في الزمن المطلق، حياة غنية جداً، وحين يعود إلى المقيد سيجد أن الوقت الذي

انقضى قصير جداً، لأنه هناك عاش فترة زمنية غير محدودة. وخير مثال على ذلك هو حادثة الإسراء والمعراج التي حدثت للمصطفى عليه الصلاة والسلام.

كيف نمتلك الزمن؟ لا نملك الزمن إلاّ عندما نعيشه بوعي، فالإنسان يقف في نهر الزمن، ويراه يمر بين يديه، وتحت عينيه، وهو عطشان لا يشرب منه، ولا يعيشه، فهو زمن ليس له، وليس له من الزمن إلا ما ارتشفه منه فأصبح جزءاً من ذاكرته.

فكّر دائماً بأنك في هذه اللحظة الراهنة، في المكان والزمن اللذين أنت فيهما الآن، فكّر في أنك هنا ولست في مكان آخر، وأنك في هذه اللحظة، وليس في الماضي أو المستقبل، عندها ستملك جمال اللحظة الراهنة وجمال المكان الذي أنت فيه، ولن يعكر صفوهما تصوُّر أنك في زمن آخر، أو في مكان آخر، مع أناس آخرين، عندها ستكون سعيداً، وخاصة عندما تعرف أن الحياة في مجملها ليست إلا مجموعة وحدات من الزمن موجودة في المكان، فإذا ما أدركنا هذا السر، أخذنا الحياة على دفعات، نعيش كل مرحلة منها بكل طاقتنا، ولا يقيدنا في عيشها أو تصورها إلا الهدف الذي وضعناه لحياتنا، أما من لا هدف له، فلا معنى لهذا الكلام عنده. إن الإنسان ليألم حين يدرك تقدمه في السن واقترابه من الموت، ولكي لا يتألم عليه أن يكون حكيماً في تصور الوجود، فهو قد

اكتسب معرفة حقيقية ارتبطت بالعمر، ولولا ذلك لما كان على هذا المستوى المعرفي، وحينها سيرى الأمر عادياً، ولن يأسى إذا رأى شمس العمر مالت نحو الغروب. إنّ شمس المقيد إذا مالت إلى الأفول، فإن شمس الزمن المطلق تزداد شراقاً. ولعل الحكمة الإلهية شاءت ألا تلتقي الشمسان، فالضياء المطلق يكبر في أثناء استمرار الزمن المقيد، وهذا هو السر الإلهي، فلو أن الإنسان استطاع، وهو يسير في طريق الحكمة، أن يطيل عمره وهو في صحة، لاستطاع الوصول إلى مرحلة النبوة، وكأن الله لا يريد له أن يصل إلى هذه المعرفة، لأنها وقف على عدد قليل من البشر، اختارهم الله، فشاءت إرادته أنه كلما ارتقت المعرفة لديهم، اشتد ضياء المطلق، وكانت شمس المقيد مائلة إلى المغيب.

عندما يعيش الإنسان أموراً عظيمة في فترة زمنية معينة، فإنه يشعر أن هذه الفترة كانت قصيرة بالنسبة إلى عمق التجربة والمشاعر التي عاشها فيها، ولكن ذاته حين تضطر إلى الخروج من زمنها إلى الزمن المقيد، لسبب خارجي له علاقة بالعرض، فإنها تشعر أن هذا الزمن غير كاف لها، لأنها حرمت من جمال الشعور الذي كانت تحياه هناك في حالة من السعادة والسرور المطلقين، لا نهاية لها ولا بداية، وهي حينما تخرج، تقيس ما عاشته في المطلق بالزمن المقيد، فتشعر أن الزمن لم يكن كافياً، لأنها لم تكتف، ولن تكتفي، فهي تريد العيش بأزلية وسرمدية، وتريد لزمنها

الاستمرار، ولكنه مقطوع بالزمن المقيد. ولعل شعورها بنقص الزمن إنما يأتي من أن التجارب التي عاشتها في ساعة من زمنها المطلق، لا يمكن أن تُعاش على مستوى الزمن المقيد، في سنوات طويلة.

تشرق الشمس وتغيب، من غير أن تهتم بأحد، وبحسب رتابة الشروق والغروب يعيش الإنسان، فيخضع لحركتها. بائسٌ هو الإنسان، ذاك الذي لا يمتلك شمسه الداخلية، فيتخلص من رتابة الأيام، بائس وتعيس من لا يملك شمساً تضيء قلبه، وتغمر وجوده بالدفء والحرارة والأمان والسكينة والسعادة.

ولعلّه من النادر أن يتساءل شاب: كم مضى من العمر؟ وماذا حققت في ذلك المنقضي؟ والواقع أنّ الشيخ هو الذي يطرح هذه الأسئلة في الغالب، والحق أن على الشاب أيضاً أن يطرحها، إذ لا يعرف المرء منا متى ستكون نهاية زمنه، إلا أنه واثق من أنها آتية لا ريب.

انظر في ما فعلته في زمنك المادي المقيد المنصرم تر أنك لم تحقق، في الغالب، إلا ما لا تستطيع أخذه معك عندما يحين وقت رحيلك: المال، والجاه، والزوج، والأولاد، والمزارع، والشقق، والقصور، والسيارات، والحياة المترفة. وهذا أكثر ما يمكن لك أن تحققه، وربما لا تفعل، وكله لا يذهب معك في نهاية المطاف، بل سيبقى حيث تركته، يتمتّع به آخرون من بعدك. ولكن ماذا جمعت مما يمكن لك أن تأخذه معك؟ الزاد قليل،

والذنب كثير، ولا عجب، فالقوة المحرّكة العَرَضية هي السبب. فاغنم خمساً قبل خمس، اغنم طاقتك في عَرَضك لخدمة طاقتك في جوهرك، واحرص على أن يكون الاثنان في خدمة وظيفتك التي خلقت من أجلها، واعلم أنه لن يموت أحد بالنيابة عنك، ولن ينزل في قبرك غيرك، ولن يحاسب أحد بدلاً منك، وأن الأهل، والأولاد، والمعارف، والأصدقاء، لن يغنو عنك من الله شيئاً، فلا تجعل منهم سبب ضلالك وبعدك عن الله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.[١٧]

صحّح المقيدَ بالمطلق، واجعل هذا رقيباً على ذاك، واعلم أنه يجب أن يكون في خدمة المطلق، فلا تستبدلنَّ الذي هو أدنى بالذي هو خير، ولا تبع المطلق السرمديّ الدائم بالمقيّد المؤقّت الزائل. فإن لم يكن المطلق هو الذي يحكم وجودك، فلا فائدة من وجودك، بل لو كنت تراباً لكان أنفع لك. كن مطلقاً تملك المقيد، ويكون في خدمتك، أما إذا كنت مقيّداً، فأنت لا تملك شيئاً، وتصبح أنت في خدمته، ويكون الحيوان أفضل منك.

---

[١٧] التوبة/٢٤.

وبعد، هل فات الأوان؟ لا تقنط من رحمة الله، فالأوان لا يفوت أبداً لمن اهتدى بعد الضلالة، وأناب إلى الحق. إذا أردت السفر إلى دمشق، وركبت حافلة سارت بك، ثمّ اكتشفت بعد زمن أنك في الطريق إلى بغداد، فماذا تفعل بعد أن تكون قد قطعت أكثر الطريق؟ هل تتابع بدعوى أن الأوان قد فات؟ أم أنك تعود أدراجك؟ عد، فإنك إن لم تصل، فيكفي أنك كنت في الطريق الصحيح، لأن السعي إلى الكمال كمال.

الفصل الثالث

حرية الوجود أم عبودية الاتّباع

١- تمهيد

٢- أولاً: التوحيد أصل الحرية

٣- ثانياً: الاتّباع أس العبودية

٤- ثالثاً: أثر الحرية والعبودية في الفرد والمجتمع

٥- رابعاً: سبيل التحرر

مدخل

الإنسان كائن زمني، ارتبط وجوده بالزمن، من حيث العَرَض والجوهر/الجسد والذات على السواء، وهو زمن قصير جداً إذا عددنا عمره الخاص به بين لحظتي الولادة والموت، وعليه أن يعيش حياته يوماً بيوم بل لحظة بلحظة، وأن يعيش يومه على أنه آخر يوم في حياته، فهو لا يعرف إن كان سيكون في هذا الوجود غداً ولكنه يعرف أن يوماً ما آت سيكون من غير غد، بالنسبة إليه.

ولما كان الوجود على مستويين: العرضِ والجوهرِ، فقد اقتضى أن يكون الزمن زمنين: مطلقٍ يقابل الجوهر ومقيدٍ يقابل العرض. والإنسان بين هذين الزمنين، وذينك الوجودين، يعيش بين الحريةِ والعبودية، حريةِ الوجود المطلق، وعبودية الوجود المقيد، فالإنسان وجد أولاً جوهراً، ثم خُلق عَرَضاً، وهو حرٌ من جهة الجوهر عبدٌ من جهة الجسد لما لهذا الجسد من ضرورات مادية وعلائق ترابية، ولارتباط وجوده بالزمن والمكان بكل ما يعنيه هذان من وجودات لأناس آخرين متصارعة فيما بينها على المصالح الفردية، ليس بينها من اختلاف إلاّ في نسبة امتلاكها القوة الضرورية، على اختلاف أشكالها وأنواعها، لتحقيق تلك المصالح. ولما كان العَرَض حاملاً الجوهر الذي لم يصبح مكلفاً إلاّ عندما أصبح في الجسد، فقد اقتضى أن يحمل الجسد المقيدُ العبدُ حريتَه في داخله، وعلى

ذلك فالإنسان حرٌ بالقوة عبدٌ بالفعل. ولما كان الإنسان إنساناً بالجوهر ولم يكنه بالعَرَض فإن حريته مرتبطةٌ بإنسانيته، وعبوديتَه مؤسسةٌ على بشريته. ومكانة الإنسان إنما كانت من جهة وجود الجوهر فيه، فالملائكة ليست مكلفة ولم تحمّل أمانة وهي لا تستطيع أن تعصي الله، والإنسان وحده مختلف عنها لوجود التجلي الظاهر والباطن فيه، وهنا مكمن التكليف والاختبار، ومن هنا بدأت العبودية والمكانة السامية للإنسان وهو ما جعله مختلفاً عن باقي المخلوقات فسجدت الملائكة له، وسخر له الباقي، فالذات مكان التكليف، والعَرَض أداة التنفيذ، ولذلك فهو قادر على الخروج على القانون الإلهي، وليس كباقي المخلوقات التي تخضع لقوانين لا تحيد عنها. والإنسان من جهة العَرَض مشدود إلى التراب الذي يقاوم الذات في أداء وظيفتها، مما يفقدها قدرتها على استيعاب التكليف والاستفادة من قدراتها الآتية من تسخير المخلوقات لها. وعندما لا يخضع الجسد للذات فإنه يستفيد من هذا التسخير لمصلحته، على حين أن هذا التسخير إنما هو للذات في الأصل، وليس للجسد، وهذا ما يؤدي في نهاية المطاف إلى وقوع الإنسان كذات أسيراً للجسد، ولكنه لا يشعر بأسره لأنه في الأساس ما كان حرّاً فالحر هو العارف، والجاهل هو عبد الوهم والهوى والخوف، وليس بجاهل من يعرف أنه كذلك، وإنما الجاهل من كان يظن نفسه على علم، وهو بمنأى عن ذلك، وهو من قال الله عز وجل فيه:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.[1]

الحرية إذن ثمرة المعرفة، والجاهل بذاته ليس حراً بل هو عبد جسده، وهو من الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾[2] والجسد عبد للنزوات، ومن الصعوبة بمكان أن يتحرر وخاصة أن هذا الأمر مرتبط بالزمن، لأن الإنسان كائن حيوي بوجود الزمن فيه وهو خاضع له وموجود فيه، فوجوده محكوم ببداية ونهاية محددتين، ولذلك فإن أمر تحرره مرتبط بالزمن إذ من المفترض أن تزيد معرفته بذاته مع الزمن فيمتلك الحرية، ويصبح جسده ملكاً له، وتصبح علاقته مع الآخرين أفضل وأرقى.

يقوم الوجود الإنساني على ثنائية هي منشأ التكليف في أصل خلقه وفي الوظيفة التي خلق من أجلها. وبحسب ما قدمناه من زمنية الوجود الإنساني، فإن عليه أن يحقق تلك الوظيفة في الزمن المحدد له، ولا يضيّع هذا الزمن فيما لا نفع فيه أو في ما يضره ويبعده عن هذه الوظيفة، وهو ما يقتضي نفي العبثية في وجود الإنسان وفي فعله على السواء. من هنا كان

---

[1] الجاثية/٢٣.

[2] الفرقان/٤٤.

تحقق الحرية في الوجود الشرط الأول لتحقيق الوظيفة على الحقيقة، وتحقيق هذه الحرية يعني بالضرورة نفيَ عبودية الاتّباع والوقوع في العبثية.

ما حرية الوجود، وما عبودية الاتّباع؟ وما علاقتهما بالإنسان والمجتمع، وما أثرهما فيهما؟ ما مصدر العبودية، وكيف يمكن للإنسان أن يصبح حراً؟ تلك هي الإشكاليات التي يريد هذا الفصل أن يجيب عنها، هادفاً إلى طرح إشكالية الواقع العربي الإسلامي، بكل ما فيه من تخلف وضعف وجمود، في كل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والعلمية والثقافية، وساعياً إلى الكشف عن الأسباب الجوهرية الكامنة وراء ذلك.

وقد اقتضت ضرورة المنهج أن يوزع هذا الفصل من الدراسة على أربع فقرات مسبوقة بتمهيد يحدد مصطلحاتها، ويبين مجالاتها، وستبحث الفقرة الأولى في جوهر حرية الوجود، على حين أن الثانية تدرس أصل عبودية الاتباع، وتتكلم الفقرة الثالثة على أثر الحرية والاتّباع في الفرد والمجتمع، أما الرابعة فستعرض سبيل التحرر.

تمهيد

ثمة التباس خطير في أذهان المثقفين العرب المعاصرين، كما في أذهان السياسيين، في مفهوم الحرية والعبودية، وكل ما هو موجود في أبحاثهم وخطبهم إنما هو مأخوذ عن الفكر والثقافة الغربيَين اللذين ارتكزا في مفهوم الحرية لديهم على نفي البعد "الميتافيزيقي" في الوجود الإنساني، وبشّرا بضرورة التحرر من المجرد من أجل العودة إلى الواقع، ونفي وجود الإله لصالح وجود الإنسان "السوبرمان"، كما يقول نيتشه في كتابه: هكذا تكلم زرادشت. فالإرادة الإنسانية تتعارض مع الإرادة الإلهية، ولا يمكن للإنسان أن يكون حر الإرادة إلاّ إذا نفينا وجود الإرادة الإلهية التي هي ليست يقينية الوجود في مقابل الوجود الإنساني العيني. ولعل الفلسفة الوجودية التي قال بها سارتر تمثل أجلى صورة لمفهوم الحرية في الغرب العلماني. وهو مفهوم يتعارض مع مصلحة الوجود الإنساني الفردي والاجتماعي.

أما عند العرب المسلمين فتوضع كلمة حرية مقابل الرق وتتكلم على تحرير رقبة، وتضع الحرّ في مقابل العبد، والحرّة في مقابل الأمة، وتضيف أن الحرّةَ من النساء الكريمةُ، وأنّ الحرَّ ما خالف العبودية، وبرئ من العيب والنقص. والحُرُّ أيضاً هو خيار كل شيء، ويقال حُرِّيةُ القوم أشرافُهم.

ذلك هو مفهوم كلمة حرية في المعاجم وكتب الأدب العربي القديم كما في الشعر، وهو معنى مأخوذ من القرآن والحديث ولغة العرب، وشائع في كتب الفقه، فكل مسلم حر في الشريعة الإسلامية، وكل إنسان كذلك. والإسلام يسلم بوجود نظام الرق ولكن وجود العبد في المجتمع المسلم غير طبيعي، ولذلك فإن تحرير الرقبة كان دائماً من أفضل الأعمال التي يقوم بها المسلم، وبخاصة إذا كان العبد مسلماً. إلا أن هذه المسألةَ مسألةٌ تاريخيةٌ خاصة بظروف معينة، بدليل أن الفقه الخاص بها معطل اليوم، لانتفاء الحاجة إليه. على أن ثمة استخداماً آخر للكلمة ظهر عند المتكلمين في مسألة الجبر والاختيار وحرية الفعل الإنساني.

وبالطبع فإنه لن يكون ممكناً في هذه الدراسة تتبع التطور الدلالي لكلمة الحرية وبخاصة في أثناء غياب معجم دلالي عربي، ولذلك فإن المفهوم الذي سنستخدمه لكلمتي: حرية وعبودية، سوف يتوضح مع تقدم الدرس، ولعل مفهوم كلمة حرية في كتب الأدب العرفاني يقترب جداً من استخدامنا[٣]، وإن كنا لم نعتمد على هذا الأدب في هذه الدراسة التي جاءت نتيجة لقراءات كثيرة تأسست على النصوص الربانية أولاً. ولعل ما يورده الجرجاني في التعريفات هو التعريف الأقرب إلى فهمنا

[٣] ورد في الرسالة القشيرية كلام على الحرية، يمكن تلخيصه في العبارة التالية: (واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية، فإذا صدقت لله تعالى عبوديته خلصت عن رقّ الأغبياء حريته)، القشيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٩٩٨، ص٢٩٣.

لكلمة الحرية، يقول: "الحرية في اصطلاح أهل الحقيقة الخروجُ من رق الكائنات، وَقطعُ جميع العلائق والأغيار"،[٤] وعلى ذلك فإن هذه الدراسة ليست بحثاً أدبياً أو فقهياً أو صوفياً أو فلسفياً، وإنما هي تستفيد من هذه المجالات جميعها، لأنها تنطلق من العقيدة الإسلامية في كلياتها الإنسانية والاجتماعية، ولذلك فهي تخاطب المسلمين أولاً، والناس كافة ثانياً.

أولاً: التوحيد أصل الحرية

هل الإنسان حر في الأصل ثم صار عبداً؟ أم العكس هو الصحيح؟ الإنسان حر في أصل وجوده وقبل أن يكون جسداً، بدليل أن الله كرّم آدم بأن نفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، فكان مجلى للصفات الإلهية التي ما سجدت الملائكة إلا لها. وقد جاء الإشهاد دليلا ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[٥] وقد كان الجواب في قولهم: "بلى، شهدنا" ، دليلاً على وعي الإنسان وقدرته على فهم السؤال، وامتلاك حرية الجواب. ولم يكن كذلك إلا لأن

---

[٤] الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨، ص/٨٦

[٥] الأعراف/١٧٢.

الله علم آدم الأسماء كلها، فكان عالماً بالفضل الإلهي، حراً بفضل العلم مصدر الإرادة، قادراً على أن يشهد على نفسه بأن الله ربه.

وإذا كانت الشهادةُ صادرةً عن الذات، النفسِ، فهذا يعني أن الذات هي مركز الإيمان، فهي التي أُشهدت، وهي التي أجابت. وإذا كان الإيمانُ مصدرَ عدم الخضوع لغير الله، فإنه بالتالي مصدر الحرية التي تتأسس على العبودية لله عز وجل، وعلى هذا فإن الإيمانَ بالله أو بالتوحيد هو مصدر الحرية في الذات الإنسانية، والإنسانُ الحرُ هو عبدُ الله، وهو الذي لا يجد في وجوده حاكماً أحداً سواه.

يردد المسلم لفظ الشهادة عدة مرات في اليوم، وهو بقوله: "أشهد أن لا إله إلا الله" يقرر بإرادة واعية وحرية مطلقة أنه لا إله إلا الله، وأن لا حاكمية عليه لغير الله، وهو بذلك يملك حريته من عبوديته المطلقة لله، وهي ليست عبودية بالمعنى اللغوي، وإنما هي عودة إلى الأصل الذي يمثل معرفة ضرورية لامتلاك الحرية التي تأتي من إدراك الإنسان من أنه ذات عارفةٌ، حرةٌ وقادرةٌ على الاختيار، وهو ما تذهب إليه الشهادة التي تعني في هذا السياق إدراكَ الإنسان وجوده المستقل عن الوجود الإلهي.

إن حرية الإنسان المسلم كامنة في ذاته، وتتجلى في شهادته. ولما كان وجود الذات والعلم الكامن فيها، وقدرتها على الشهادة إنما هي فيض من النور الإلهي، فقد تبين أن حرية الإنسان لا تتحقق لديه إلا بشكل يتناسب

طرداً مع عبوديته لله. وقد جاء خطاب الله للرسول بلفظ العبودية دليلاً على ذلك في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[٦] وفي قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾[٧] فالرسول عليه الصلاة والسلام نموذج الإنسان الكامل، وما كان كذلك إلا لمطلق عبوديته لله، وما الخطاب الإلهي إلاّ خطاب تكريمي يعلي من شأن المخلوق الممكن بجعله عبداً لله، وهي عبودية في جوهرها تحرر من كل تبعية أو حاكمية لغير الله. ولمّا كان على المسلمين أن يتبعوا الرسول فإن أول ما عليهم أن يتبعوه فيه هو الإيمان أصل العبودية، ومطلق الحرية عند الفرد يقوم على مطلق العبودية لله عز وجل.

لقد ارتبطت حرية الإنسان بالإيمان، وارتبط الاثنان معاً بوظيفته في الأرض التي حددها القرآن بالعبودية والاستخلاف، والعلاقة بين الوظيفة والحرية علاقة جدلية فالثانية أصل الأولى، ولا تتحقق الوظيفة إلا بقدر نسبة تحقق الحرية عند المسلم.

---

[٦] الإسراء/١.

[٧] الفرقان/١.

ثانياً: عبودية الاتّباع

يقلد المسلمون أصحاب مذاهبهم الفقهية، بل هم يقلدون أتباعَ أتباعِ هؤلاء. وإذا سلمنا بهذا التقليد جدلاً لأن المسألة تتعلق بالمسائل الفقهية وأشكالها وآلياتها، فإن ما لا يمكن قبوله هو أنهم مقلدون أيضاً في إيمانهم، لأن الإيمان قضية قلبية ذاتية قائمة على العلاقة المباشرة بين الله والإنسان. فإذا كان كذلك فهل هم أحرار بالقياس إلى ما تقدم؟ الحقيقة أن التقليد في المسائل الفقهية ينفي الحرية في الوجود لنفيه الحرية في الاختيار، والاختيار يقوم على المعرفة. فلا يمكن لإنسان غير حر في وجوده أن يكون حراً في اختياره. وعلى هذا فالتقليد غير القائم على المعرفة اتّباع أو تبعية للمقلَد، وخضوع له بشكل أو بآخر، وهو خضوع غالباً ما يخرج صاحبه عن الطريق القويم بخروج المقلَّد عن هذا الطريق، إلاّ أن الأمر يصبح أخطر إذا ما تعلق التقليد بالإيمان.

ويعود الأمر برمته إلى النسيان الذي حصل للإنسان بعد أن أصبح في العالم الأرضي، إذ إن الأنبياء والرسل ما أرسلوا إلاّ ليذكروا الناس بالإشهاد الذي كان بينهم وبين الله وليس عليهم أن يستجيب هؤلاء لهم، لأن المسألة تتعلق بإرادة الله وحكمته. فقد نسي الإنسان تلك الشهادة التي أخذها على نفسه، بل إنه أُنسيها في إطار تبعيته لغير الله الناتجة عن انصرافه إلى ما تفرضه عليه طبيعة وجوده المادي، على الرغم من أن الله

كفل للإنسان هذا الوجود بحسب قوانين يعرفها الإنسان. فالجسد، كما قلنا، حاملُ الجوهر مركزِ الإيمان، وهو يولد في خضم الوجود المادي، والذات كامنة فيه بالقوة، لا تخرج إلى الوجود بالفعل إلا بالعلم والتعلم، والتفكر والتدبر، ومصدر هذه إنما هو الواقع المعيش الذي يوجد فيه الجسد أولاً وينشأ في وسط اجتماعي يتألف من الأبوين والأسرة، ومن ثم المجتمع بكل ما فيه من تعدد في القيم والأعراف والمبادئ، والعادات والتقاليد ونظم العيش وأنواع السلوك، وهو يعيش معظم وجوده في جوانب حياته المختلفة مكتسباً من المجتمع ما لم يفكر فيه، مقلداً إياه في كيف وماذا يأكل ويشرب وكيف ومتى ينام ويستيقظ، وماذا وكيف يلبس وكيف يتزوج، وكيف يفرح وكيف يحزن، وأخيراً كيف يعبد الله، فإن كان في أسرة مسلمة كان مسلماً، وإن كان في أسرة غير ذلك كان على شاكلة أسرته في اعتقادها ودينها اللذين هي عليهما، وإن كان في أسرة فقيرة أو غنية متحررة من القيود والقيم الاجتماعية أو متمسكة كان على صورة أسرته بالزيادة والنقصان وبحسب الزمان والمكان.

ويخضع الجسد المتعدد المركب من عناصر مختلفة لضرورات حاجاته في البقاء وحفظ النوع، وهو ما يدفعه في سبيل تحقيق ذلك إلى الامتلاك، ولكنه ليس وحده في المجتمع، وهذا يعني وجود صراع بين الأفراد في داخل المجتمع على تحقيق المصلحة الفردية، لأن ما يُرغب

بامتلاكه متنافس عليه، لا يناله إلا الأقوى على اختلاف القوى وأنواعها من جسدية أو اجتماعية أو مالية أو سياسية أو علمية أو ثقافية أو مجتمعة من عدد من كل هذه القوى. فإذا كان ما يحكم الفردَ أو المجتمعَ ليس الذات وإنما الجسد وقع الاثنان معاً في عبودية لا متناهية يمكن إحالتها كلها إلى حاجات الجسد ونزواته وأطماعه وجشعه، وحبه لجمع المال والاستزادة من اللذات، والإسراف في ذلك، وإن كان هذا يعني حرمان غيره، من حقوقه، وانتشار الظلم، وما يترتب عليه من الحسد والحقد والكراهية، في المجتمع.

لقد نسي الإنسان ذاته وما فيها من إشهاد وابتعد بذلك عن الإيمان بالتوحيد بقدر ذلك النسيان ووقع في حب الدنيا لاعتقاده، نتيجة غياب التوحيد، أن الوصول إلى ما يريده يقتضي الكذب والنفاق والرياء والظلم، وإرضاء من بيده مقاليد الأمور التي يطمع بها، فأشرك بالله ما لا يضره وما لا ينفعه، وأصبح عبداً لغير الله، وهي عبودية لآلهة متعددة يأتي في طليعتها الهوى وحب الدنيا والمال الموصل إلى نيلها.

لقد اتبع الإنسان هواه وما ألف عليه آباؤه، فسهل على الشيطان خداعه، واتخذ من عبيد الدنيا أولياء له من دون الله، فأصبح الظالمون

بعضهم أولياء بعض، على حين أن ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾[٨]

يقلد الإنسان في وجوده المجتمع، فإذا كان معظم أفراد هذا المجتمع على حال من الضياع كان الإنسان في ضلال بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾[٩] ويصبح بهذا عبداً للمجتمع وعاداته وتقاليده وكل ما ينسيه حريته المتمثلة في التوحيد، ويبتغي العزة بغير ذلك، ومن كان على هذه الشاكلة فإن الله لا يهدي من فسق عن أمره، يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[١٠]

---

[٨] يونس/٦٢.

[٩] الأنعام/١١٦.

[١٠] التوبة/٢٤.

ثالثاً: أثر الحرية والاتّباع في الفرد والمجتمع

يولد الإنسان وحدَه، ويموت وحدَه، ويبعث وحدَه، ويحاسب وحدَه. ولكنه يمتلك حرية يجب عليه أن يصوغ حياته على أساسها، فلا يخضع إلا للقوانين الإلهية وما لا يخرج عليها من القوانين البشرية، وغير هذه القوانين يفقده حريته، فإذا ما حوسب حوسب بشدة، وسيكون عذابُه أليماً في الدنيا والآخرة، لأنه رضي بالاستسلام لمجتمع يطبق قوانين لا تتفق مع قوانين الله ونسي أنه فرد متفرد وكائن كوني لا شبيه له ولا بديل، بدليل أن الله أشهد كل فرد على ذاته ولم يَنُبْ أحدٌ عنه في ذلك، وهو بذلك حر في عين وجوده، لا يجبره أحد على اتباع ما لم ينزله الله، يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾[١١] ومادام الإنسان يعيش وسط المجتمع ويولد ويموت فيه وحيداً، فإن عليه أن يحيا في إطار المحبة الإلهية عن طريق العلم وتحقيق وظيفة العبودية والاستخلاف. فإذا كان وجوده في مجتمع لا يمكنه من تحقيق الوظيفة، سواء أكان ذلك عن طريق الشريعة أم عن طريق الفيض الإلهي بل قد يعيقه عن ذلك، فإنه سيكون عبداً للجماعة، وعليه أن ينأى بنفسه عنها بفضل النور الإلهي، فينظر في كل القوانين

[١١] سورة الكافرون.

الوضعية ومجموع العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية، فإذا انسجمت مع قوانين المحبة الإلهية قبل بها وإلا فعليه أن يرفضها، وإن لم يفعل فسيقع في فتنة عظيمة ويكون هو الجاني على نفسه، وعندما سيموت لن يقبل الله منه عذراً، لأنه قبل بالعيش في مجتمع لا يساعده على تحقيق الوظيفة. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[١٢]. وكذلك حال المجتمع الذي استبدل قوانين الله بأنظمة مخالفة للمحبة الإلهية. فالإنسان الذي لا يستطيع اكتشاف النور الإلهي/الشهادة الذي في قلبه ينفي حريته المستمدة من عبوديته لله. وإذا انتفت حرية الفرد فإن حرية المجتمع ستنتفي بالضرورة، ولن يولّد هذا المجتمع إلا أفراداً عبيداً بعد أن سلبهم حريتهم، وفرض عليهم العبودية من خلال صنعهم على شاكلته، وهي عبودية للمادة التي تنظمها القوانين التي جاء بها من خارج الأطر المعرفية التي ينتمي إليها المجتمع وثقافته وقيمه العالمة وغير العالمة.

الفرد هو المحور الأول في الجماعة والمقصود بذلك الفرد المؤمن الذي يعرف حريته الضرورية لتحقيق وظيفته، لن يتحقق مفهوم الجماعة إلا بتوفر هذه الحرية، ولكن أغلب الناس نسوا وابتعدوا عن الطريق

---

[١٢] النساء/٩٧.

الموصلة إلى الغاية، ودليل هذا الأكثرية التي وصفها الله بالضلال في كل موضع ذكرت فيه في القرآن الكريم، وهذا يدل على وجود أفراد قلائل هم على الطريق القويم، وعلى هؤلاء الذين نجوا بأنفسهم أن يكونوا رسلاً ودعاة إلى العودة إلى الذات فيصبحوا مبدأ لغيرهم وقدوة عملية، فقد دأب الناس على اتباع من يرون فيهم الصلاح ممن لا يفرق بين علمه وعمله، وملوا من الذين يقولون ما لا يفعلون، ﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾[١٣]

علينا أن نقبل كل ما كان لصالح وجودنا ويساعدنا في أداء الوظيفة المحددة لنا في القرآن وإلا فلا، لأن الفرد لا يستطيع أن يعيش مرتين، وهو لا يستطيع أن يختار الزمن والمكان اللذين يعيش فيهما، فلم يبق لديه من خيار إلا اختيار الطريقة التي يعيش فيها حريته المشروطة بالوعي المحدد بالمحبة الإلهية.

إن تحقيق الإيمان هو في حقيقته تحقيق للحرية الإنسانية. وأن يكون الإنسان مؤمناً يعني أولاً وعي التميّز الفردي والشعور بالمسؤولية الناجمين عن تحقيق الإيمان مصدر الحرية، وهذا الوعي هو الشرط الأول لتحقيق

---

[١٣] سورة العصر.

معنى الاستخلاف في إعمار الأرض، يقول الله تعالى: ﴿ ...هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ... ﴿٦١﴾ ﴾[١٤] فكل إنسان له شخصية متفردة تشكل عالماً كونياً قائماً بذاته. والفرق بين الناس ليس بسبب النوع كما عند أرسطو (عبيد وأحرار) وإنما هو بسبب القيمة (مؤمن أو غير مؤمن). وقد جاءت رسالة المحبة الإلهية للناس كافة لا تفرق بين الناس إلا بحسب الإيمان أو نقيضه، والعمل هو الذي يبرهن على الإيمان أو نقيضه. وقد حررت هذه الرسالة الإنسان من التبعية للعرق أو القبيلة أو الحزب كما حررته من نزواته وأهوائه الدنيوية، فحررت بذلك انتماءه الداخلي والخارجي من التبعية لغير الله.

إن حرية المجتمع شرط لحرية الفرد، فإذا كان المجتمع غيرَ حر انعكس هذا على الفرد، ولا تتم حرية المجتمع إلا إذا أمسك الناس بزمام تطور القوى المنتجة من خلال مؤسسات اقتصادية وسياسية وثقافية مبنية على أسس معرفية يؤمن بها المجتمع. إن حرية الفرد والمجتمع الناشئة عن التوحيد عامل جوهري في تطوير المجتمع وتربية الفرد فيه، وإقامة التوازن بين الإنسان والمجتمع من جهة وبينهما وبين الطبيعة من جهة أخرى. ولذلك فإن مفهوم الحرية إنما هو مسألة سياسية واجتماعية وثقافية، يقوم على أن مبدأ المساواة والأخوة بين أفراد المجتمع هو أصل

---

[١٤] هود/٦١.

مفهوم الوجود الاجتماعي، وهو الذي يحكم كل القواعد الأخرى التي تنظم المؤسسات الاجتماعية كلها.

من خلال ما تقدم نرى أن العدالة الاجتماعية لا تتم إلا بامتلاك الناس حريتهم المبنية على التوحيد في الإيمان أس العدالة الاجتماعية ومقومها، لأن الحياة الإنسانية لا تستقر إلا في ظل المجتمع، والمجتمع لا يحقق الوسط الفاضل إلا باستقرار العدالة ونفي الظلم، وتحقيق هذه العدالة يساعد الإنسان على تحقيق ذاته وتذكر الإشهاد، ومن ثم إدراك حريته الذاتية وعيشها، وتمكينه من تحقيق الوظيفة التي خلق من أجلها.

إن حرية الفرد القائمة على التوحيد ليست عبثاً فلسفياً، وإنما هي قدرة إبداعية تولد في صاحبها قوة تمكنه من أن يكون فاعلاً في الأرض من غير خوف ولا وجل، مدركاً حريته ومسؤوليته في إطار وظيفته، فيصبح بذلك منتمياً إلى مجتمعه عاملاً على تحقيق غاياته في السعادة والاستقرار والإبداع.

إن حرية الذات عند الفرد في المجتمع تتجسد في قدرته على التنسيق بين فعله وفعل الآخر، من خلال الذات المشتركة بينهما واتصالها عند الطرفين بالثقافة الاجتماعية المشتركة حضارياً وتاريخياً. ولكن العلاقة بين الفرد والآخر يجب أن تقوم على المعرفة التي تلح عليها هذه الثقافة، محرضة أداتها العقل على التفكير في كل مفردات الوجود وعناصر الكون.

ولعل ابتعاد الفرد عن المعرفة ووقوعه في التقليد سلبه حريته التي اكتسبها في أصل وجوده بتكليفه بالعبودية والاستخلاف، فأصبح اليوم ليس "حراً" مستقلاً تماماً عن الوجود الإلهي كما يريده الماديون، وليس عبداً لله حراً كما أرادته المحبة الإلهية، وإنما هو متردد بين الحالين لا يبرح مكانه كعربة يشدها حصانان في اتجاهين متعاكسين.

يرى إقبال الشاعر والفيلسوف الباكستاني أن تحقيق الإيمان القوي بالإرادة الإلهية "هو في حقيقته تحقيق للحرية الإنسانية وللاختيار المسؤول، ذلك أن الإنسان الحر هو الذي يسخر العالم لفائدته، شريطة أن يقيد نفسه بالشريعة".[١٥]

وقد ربط قانون المحبة الإلهية في الواقع العملي حرية الفرد بحرية الجماعة، وجعل كلاً منهما رقيباً على الآخر ومسؤولاً عنه، فلا حرية للفرد خارج إطار مصلحة الجماعة وليس للجماعة أن تحد من حرية الفرد ما دام في خدمتها وصالحها ولا يجوز له الخروج عليها إذ لا حرية له في تجاوزها. والنصوص التي توضح ذلك أكثر من أن تذكر، فهي تبدأ من مسؤولية كل فرد في موقعه، لتمتد إلى علاقة الجار بالجار والفرد بالجماعة كما جاء في حديث السفينة، والفرد بالفرد كما في الحديث القدسي: "يا عبدي مرضت

[١٥] بو عزيز. محمد العربي، محمد إقبال، دار الفكر، دمشق ١٩٩٩، ص/٤٠٠.

فلم تعدني...."، وقد تمثل كل هذا في جميع الشعائر وأنواع العبادات التي يعيشها المسلم يومياً.

إلا أن ذلك القانون نفسه حرص على الذات/الفرد أولاً، فنص في كثير من الآيات، في حال فقدان الفرد حريته في إيصال الدعوة إلى الناس أو في حال فساد المجتمع، أن يقي نفسه أولاً، فبين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾[١٦] أن الذات عنصر أولي في مسألة التغيير، فالإرادة في الآية إرادتان والتغيير تغييران، ولكن الله قدّم إرادة الإنسان الحرة على إرادته هو، كما ربط تدخله لتغيير الواقع بتغيير يبدؤه الإنسان نفسه. ولعل قوله تعالى: ﴿...قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾[١٧] يوضح مسؤولية الفرد الحر في إطار المجتمع، إذ عليه أن يوصل الرسالة إلى الآخرين، وبذلك تنتهي مَهمَته أو حريته، أما الباقي فهو على الله الذي يقول في كتابه العزيز: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾[١٨]

---

[١٦] الرعد/١١.

[١٧] الأنعام/٩١.

[١٨] البقرة/٢٧٢.

ثمة دعوة إلى التوازن بين حرية الفرد وحرية الجماعة، فلا يطغى واحد على الآخر، لأن نتيجة الطغيان تعني دمار الاثنين معاً، ولعل هذا ما يفسر واقع المجتمعات العربية والإسلامية في مختلف الاتجاهات والمجالات. فكم من مادي أراد تغيير مجتمعه بسلطة القوة التي يملكها أو الثقافة والتعليم والإعلام، وكم من متطرف قام بتكفير المجتمع وتشريع حربه وقتل أهله.

لا يمكن للإنسان إلا أن يكون اجتماعياً يعيش وسط مجتمع، ومن هنا فإن ثمة علاقة جدلية بين حريته وحرية المجتمع الذي يعيش فيه، وكلاهما مسؤول عن حرية الآخر من خلال المعرفة التي هي شرط أساسي في وعي الحرية وإدراكها وعيشها. إلا أن الأمة العربية والإسلامية تعيش في أطر معرفية غير مفكّر فيها، أُخذت بالتقليد، وهي من جهة أخرى محكومة بمعارف غريبة عنها جاء بها بعض أبنائها من الغرب الذي يناصبها العداء في الظاهر والباطن، ولذلك فهي بين سَنَدان التقليد ومطرقة التغريب ضائعةٌ فقدت حريتها، بل هي اليوم مرشّحةٌ لفقدان هويتها وذاتها ووجودها عينه.

رابعاً: سبيل التحرر

إذا كنت عبداً للدنيا فأنت عبد لمالكها من الناس، وفوق كل مالكٍ مالكٌ أقوى، ولا يكون عبداً للدنيا إلا من نسي الشهادة فنسي الله فأنساه الله نفسه. إما أن تكون عبداً أو تكون سيداً ولا يمكن التوفيق بين النقيضين. أنت سيد إذا ملكت حريتك في إقامة التوحيد في ذاتك، فكن عبداً لله تكن حراً، وتصبح سيداً في الدنيا والآخرة، وتكن من الصالحين الذين قال الله في حقهم: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[١٩] وقال عز وجل: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾.[٢٠]

عبوديتك كامنة في تبعيتك لغير الله والرسول ممن ضلوا عن سبيل الله واتبعوا أهواءهم، وقالوا قلوبنا غلف. وحريتك في اتباعك قانون المحبة الإلهي وما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يعني أن تكون مؤمناً على الحقيقة، فترى الله في قلبك، وتتذكر الشهادة، وتتدبر القرآن، وتقرأه وكأنه يتنزل عليك بحسب وصية والد محمد إقبال له. إن إيمانك كائن في ذاتك مركزِ الشهادة، وما عليك إلا أن تتذكر ذلك اليوم الذي أُشهدت فيه على نفسك، وتتيقن من أنه حق. ولكن كيف تتذكر إن

---

[١٩] الأنبياء/١٠٥.

[٢٠] مريم/٦٣.

كنت لا تعرف أن لك ذاتاً/نفساً، أُشهدْتَ عليها؟ لا بد أولاً من اكتشاف هذه الذات لاكتشاف الشهادة التي هي فيها كامنة بالقوة، ولتفعل ذلك عليك أن تبدأ بالانسحاب الإيجابي من الواقع الذي تعيش فيه وهو، في الأغلب والأعم، وسط غير صالح ولا يساعدك على التذكر بل هو يساهم في نسيانك. وهو انسحاب إيجابي لأنه دعوة إلى التأمل في ملكوت الله وخلقه بوساطة العقل وأدواته من الحواس تمهيداً للانتقال إلى تأمل المجرد، إذ لا يمكن لمن لم يتمرن على التأمل أن يدرك المجرد وهو لا يعرف تأمل المحسوس، يقول الله عز وجل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.[٢١] ولا تظنَّنَّ أن هذا الأمر سهل على من تعود النسيان وابتعد عن الإيمان، واستسلم لشهوات الجسد في وسط غير فاضل، فأصبح عبداً للدنيا بما فيها بل عبداً لمالكيها المتحكمين بها وجلهم من الذين نسوا أنفسهم.

كيف يمكن للإنسان أن يعرف ذاته؟ نعتقد أنه يمكن للإنسان أن يعرف ذلك بطريقين: الطريق الأول: التفكر في خلق الله، ويكون على مستويين: ظاهر وباطن، والباطن لا يكون إلا بعد الظاهر لأن الذات تكون في بداية وجود الإنسان المادي غير جلية ولذلك يجب أن ينصرف

[٢١] فصلت/٥٣.

التأمل أولاً إلى الخارج فيتأمل عناصر الكون ومفرداته، وهو يقوم على تأمل جانبين في الموضوع المتأمَّل: الظاهر والباطن، فكل مفردات الكون ما هي إلا تجلٍّ ظاهرٍ للذات الإلهية لأنها من خلقه وجمالها مستمد من جماله، وتأملها في ظاهرها طريق الوصول إلى تأمل باطنها، وهي ليس لها باطن إلا أننا نقصد أنها تقود إلى معرفة حقيقة وجودها الذي يوصل إلى معرفة الله، فالتأمل أولاً ينصب على مظاهر الموجودات التي يوضع تحتها الطول والعرض واللون والشكل، كما يوضع تحتها طبيعة هذه الأشياء ووظائفها في الوجود، وعلاقة بعضها ببعض، وهو تأمل يقود بالضرورة إلى اكتشاف حقيقة وجودها واكتشاف قانون الانسجام والتناغم الحاصل في علاقة بعضها ببعض، وعلاقتها بالوجود عامة. فكل مفردات الكون موضوعة في قانون ينظم العلاقة بينها، وأي خلل يصيب هذا القانون يؤدي إلى اضطراب في الوجود وفي وظائف الموجودات، ويخرجها من التسخير الذي خلقت من أجله. إن اكتشاف هذا القانون ضروري جداً لمعرفة حقيقة هذه العناصر، وهو اكتشاف يقود إلى رؤية القدرة الإلهية فيها، ويجعلنا نعرف أن هذه المفردات ما هي إلا مجلى لله تعالى في اسمين من أسمائه الحسنى: الظاهر والباطن، إلا أن هذا التأمل في مجمله لا يفيد في شيء إذا توقف عند هذا الحد، إذ لا بد من أن يرقى إلى تأمل أرفعِ موجودٍ

وأرقى عنصر من عناصر الكون ألا وهو الإنسان، الذي ميزناه من كلامنا السابق لنخصه بالكلام هنا.

الطريق الثاني: التفكر في خلق الإنسان، الذي هو جزء من الوجود الكوني وهو خاضع في انتمائه هذا إلى القانون نفسه الذي يخضع له الكون، وبخاصة في عَرَضه/ جسده، الذي هو أرقى المخلوقات على الإطلاق، لأن الله مازه منها بأن خلقه بيديه. ولكن الإنسان ليس جسداً فقط وإنما هو جوهر أيضاً، وبذلك يتفوق على باقي المخلوقات مرتين: الأولى في جسده، والثانية في جوهره الذي هو صورة التجلي الإلهي الباطن، كما أن جسده صورة عن التجلي الإلهي الظاهر.

إذا مر التأمل بكل مفردات الكون ليصل إلى الإنسان، فإن المتأمل سيستفيد من مراقبة مفردات الكون وتأملها في معرفة الإنسان، نقصد بذلك أنه سيملك مقياساً يحتكم إليه في تأمله للجسد الإنساني، وسوف يصل هذا التأمل إلى حقيقة مفادها أن الإنسان خرج على القانون الناظم للانسجام بين مفردات الكون، وهو خروج كان بقوة الإرادة الإلهية، فالإنسان خلق من التراب وفيه كل عناصر الطبيعة، وهو خاضع لقوانينها مثل كل العناصر، إلا أنه بامتلاكه الجوهر أصبح يملك الإرادة وبها تمكّن من أن لا يخضع لهذا القانون بشكل غرزي، كما هي حال باقي المخلوقات، وإنما بشكل طوعي ناتج عن العقل، ومصدر هذا من الاستخلاف الإلهي

ومن العقل والوعي اللذين سُلّح بهما، بالإرادة الإلهية، ليتمكن بفضلهما من تحقيق الاستخلاف.

إذا لم تعرف ذاتك ولم تعد إليها لمعرفتها فلن تجد فيها ذلك الإشهاد، ولن تكون مؤمناً على الحقيقة وإنما ستكون مؤمناً بالتقليد، ولن تكون إذن حراً أبداً، وستظل ما حييت كذلك. الزمان سيّال لا يتوقف، والحقيقة المطلقة هي أنت، اجعل نفسك محور الوجود، ولا تجعل وجودك تبعاً لغيرك. كل شيء لا قيمة له إن لم يخدم وجودك الحق. إذا جعلت وجود الناس محور وجودك، وكنت تابعاً لهم فعليك أن تتسول منهم كل شيء. وتذكر أن الوردة في الغابة لا تطلب الماء إلا من الله، أما وردة الأصيص فيمنّ به عليها الإنسان، كن وردة في غابة ولا تكن وردة في أصيص، فقد أنبأك ربك أنه ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾.[٢٢]

الحاضر هو كل وجودك ولحظات الحاضر هي التي تملكها، فإذا كنت حرّاً في صناعة هذه اللحظات فإنك ستحقق إنسانيتك، وستصنع دهرك الذي هو حاضرك وماضيك، أما إذا ضعفت في هذه اللحظات التي

[٢٢] هود/٦.

هي دهرك فستصبح عبداً لغير الرحمن. أفلا تستطيع أنت الذي سجدت له الملائكة أن تكون حراً وإن للحظات؟ هذه اللحظات هي دهرك، ومن الجبن ألا تكون حراً في لحظات قليلة من وجودك. عندما تتحرر بالإيمان من غير تقليد تصبح موحداً، وتنفي الشرك من وجودك، عندها لن تخاف من أحد، لأنك تعلم أن رزقك سيصلك فتؤمن بالقضاء الإلهي: ﴿ ... قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ... ﴿١٥٤﴾ ﴾[٢٣]. وبعد نفي الشرك تتمكن من القيام بما كلفت به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو ما يتطلب أولاً التمييز بينهما، وإلا فكيف يأمر الإنسان غيره بشيء لا يعرفه أو يعرفه ولا يعمل به؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾[٢٤] فإذا ما تحققت كل تلك الثمار حقق الإنسان العبودية والاستخلاف، وكان كل ما يصدر عنه من قول أو فعل صادراً عن الذات، فيكون خليفة الله في الأرض على الحقيقة، يملك كل صفاته، وتصبح علاقة ذاته بجسده سامية، فيكون الجسد آلة طيّعة بيدها، وحينئذ يقل مرض الجسد، وإذا مرض فإنه بقدرة الله في ذاته يستطيع أن يشفي نفسه بإذن الله، وإذا قويت الذات أكثر امتد

---

[٢٣] آل عمران/١٥٤.

[٢٤] الصف/٣.

أثرها من جسدها إلى أجساد الآخرين وإلى الكون، فكان أثرها فيها كبيراً جداً.

ولعلَّ أهم سبل التحرر من العبودية لغير الله أن يكون الإنسان عاشقاً، فالإنسان الذي نسي الشهادة عبد للدنيا وهو بذلك عاجز عن معرفة ذاته لانشغاله بسواها، ولابد له من أجل هذه المعرفة من أن يكون عاشقاً للجمال الذي وضعه الله في مخلوقاته، ووضع فيه انجذاباً إليه هو العشق، ولكن التشتت أفقده القدرة على العشق، وعندما يتخلص الإنسان من هذا التشتت يمتلك القدرة على العشق، ولا خلاص له إلاّ بالعشق، فيضمحل التشتت، ويصبح التركيز على الذات وعلى المعشوق الجميل، ويتمكن الإنسان العاشق من معرفة ذاته العاشقة لأنه يرى أنها مركز العشق ومأواه، فيصبح حينها رسولاً. العشق وحده يجعلنا قادرين على معرفة جواهر ذواتنا، لأنه يكشف لنا عنها، ويعمل على جوهرتها. ولما كان الانفصال بين العشق والجمال قائم، كان الشوق إليه دائم، ومع الشوق الدائم ثمة سعي حثيث إلى اللقاء ورغبة بالاستزادة منه، ولا بد لذلك من العمل والبحث عن المعرفة والسعي إلى إعمار الأرض، لأن هذا الإعمار مرتبط بإعمار الذات المرتبط بالعشق. إن نظرية العشق هذه قائمة على تفرد الذات الإنسانية، لأنها لو ذابت في غيرها لانمحت، والله يعرف أسرار هذه الذات، فجعل العشق كائناً فيها بالقوة وربط العشق بالبحث عن

الجمال، وربط هذا البحث بالمعرفة وربط المعرفة بالعمل، وربط العمل بالإيمان، وارتبط الإيمان بالعشق. إن هذه النظرية تُشكل حلقة مفرغة إذا ما فقد منها عنصر انقطع التسلسل، ووقع الإنسان في الفراغ. ومن هنا نكتشف أهمية الشوق لأنه تجدد وبحثٌ عن المعشوق يقتضي معرفة، والمعرفة هي أولى سبل معرفة الذات.

العشق قوة إلهية في الإنسان تثبت أنه موجود، لأنها القوة التي تدفعه إلى الخير والمعرفة. فإذا غاب العشق لا قيمة للوجود، إذ لا وجود أصلاً. العشق قوة لاكتشاف الكون أولاً ثم اكتشاف الذات ثانياً، تمهيداً لاكتشاف التجلي الباطن في الذوات الأخرى. والإنسان الذي يصل إلى هذه المرحلة من معرفة الذات هو الإنسان الحر الكوني والكامل والمطلق، ولكن ما يعيقه من الوصول إلى هذه الرتبة إنما هو استغراقه في العَرَض، وإن كان بإمكانه أن يقترب منها كثيراً. ويكفي الإنسان أنه يملك طاقة العشق وإن كانت كامنة فيه بالقوة، لأن وجودها يعني أنه يملك القدرة على معرفة ذاته التي من غيرها لا قيمة للوجود البشري؟

خلق الإنسان لأداء رسالة، فإن لم يستطع أن يعرفها ويؤديها لا قيمة لوجوده، وأهم ما يساعده في تحقيق الرسالة هو العشق، لأنه يجوهر الذات، فإن لم يكن العشق حقيقة فليكن عشقاً في الفكر وعشقاً لمفردات الكون. إن الناس تائهون في حياتهم لفقدانهم معنى العشق، فيبحثون عنه

بالتعلق بالجمال لأنه فيهم وهم يشعرون به في لاوعيهم، ويرغبون بعيشه، ولو ملكوا وعياً به لكان الأمر أجمل وأعمق، وحينها تسترد اللحظات قيمتها، فلا يقول الإنسان في يوم من الأيام: يا أسفاً على العمر كيف ضاع، لأن العمر يضيع عند من لا يدرك قيمة الوجود.

الذي يملك القدرة على العشق يملك القدرة على الإبداع، والأصل في هذا أن يكون الإنسان قوياً عظيماً في ذاته التي هي مركز الإبداع ومصدره، وحين يعشق فإنه سيعشق بعظمة، وكذلك الشأن حين يعمل وحين يتكلم، وحين يحزن أو يفرح، أما الحقير فكل ما يصدر عنه حقير بالضرورة. فما العشق إلاّ تجلٍّ للذات، وعندما تكون الذات كبيرة يكون تجليها كبيراً في كل المجالات، وبخاصة في العشق، وعلى ذلك فإنه من المشروع أن نقول: العشق والوجود سيّان. وإذا خلا الوجود منه فلا قيمة له ولا معنى، وإذا لم توجد الذات فلا عشق، وكل من يدعي العشق من غير معرفة بذاته فهوكذّاب. وحين يكتشف الإنسان العشق فإنه يصبح حراً موحداً خليفة لله على الحقيقة.

العبد لا يستطيع أن يحرر العبيد، ففاقد الشيء لا يعطيه، ولا بد لذلك من أن تكون أنت حراً أولاً. وستبقى عبداً بتبعيتك لهم، ولن يكون ثمة فارق بينك وبينهم إلا في اختلاف نسبة الذل والتعاسة والهوان، أو

اللذة التي تنتج عن عبودية الدنيا، وذلك بحسب السلطة أو القوة أو الجاه أو المال، مما يتفاوت الناس في امتلاكه.

كن عبداً لله، فحريتك في عبوديتك، عندها لن يكون لأحد عليك سلطان، وستصبح سلطاناً تهابك الملوك وإن كنت حافيا، وستُسَدِّدُ الضربات وتجيدها، وتجتمع فيك عظمة الملك وحريته، وتواضع الصوفي وأخلاقه، وغزارة علم الفقيه. كن عبداً لله حراً تكن مسلماً صادقاً وقوياً، فالكذب والضعف من صفات المنافقين، يقول إقبال: "المسلم الضعيف يعتذر دوماً بالقضاء والقدر، أما المؤمن القوي فهو نفسه قضاء الله الغالب، وقدره الذي لا يرد"،[٢٥] ويضيف قائلاً: "يا رجل الله، كن حاداً كالسيف، كن أنت نفسُك الرجلَ الذي يحدد مصير العالم الذي تعيش فيه"،[٢٦] "إنّ مَن لايملك قدرة خارقة، لا يعد في نظري إلاّ ملحداً وزنديقاً، وليس له نصيب في حبي، إنه لم يتذوق شجرة الحياة"،[٢٧] عندها فقط تكون قادراً على أداء الرسالة التي حُمِّلتَها عندما أشهدت على نفسك وجُعلت خليفة في الأرض وعبداً، وإلا فإن عبد الدنيا، كما يقول عنترة، يحسن الحلب والصر ولا يحسن الكر والفر.

---

[٢٥] بو عزيز. محمد العربي، محمد إقبال، ص/٤٠٥.

[٢٦] المصدر السابق.

[٢٧] المصدر السابق.

خاتمة

تقرر القوانين الطبيعية في الزمان المقيد أن الساكن لا يتحرك إلا بتأثير قوة خارجية عنه، هي محركه. وهو قانون تخضع له كل الموجودات في هذا الزمان، بما فيه الإنسان. وعلى حين أن كل هذه الموجودات لا تسعى إلى الخروج عنه، وهي إن أرادت لا تستطيع، فإن الإنسان تمكن من جهة التكليف أن يخرج عليه، فلم تعد حركته تابعة للمحرك الذي وهبه الله له: القانون الإلهي، وإنما تابعة لقانون سنه العقل البشري، يتشكل من مجموع العادات والتقاليد والقيم والمفهومات، وأنواع السلوك، وكل ما يمكن وضعه تحت اسم الثقافة غير العالمة، ويضاف إلى ذلك كل ما له علاقة بالمحركات الاجتماعية من قوانين ونظم سياسية وثقافية ومعرفية وضعية، توضع تحت اسم الثقافة العالمة. وسيبقى الإنسان المخلوق الإلهي الذي كُلف بالعبودية والاستخلاف، وزود بكل ما هو ضروري لأداء هذا التكليف، عاجزاً وتابعاً، ما دام يسلم أمره لهذه المحركات الوضعية. ولكي يتخلص الإنسان من هذه الآلية في السلوك ويعود إلى دائرة الاختيار، سبيله الوحيد إلى امتلاك الوجود، ومنفذ النجاة الذي لا يوجد سواه، لكي يكون بعد أن لم يكن، لابد له من أن يبحث عن محركه الخاص به، وهو محرك داخلي لا سلطة لأحد عليه، لأنه من عوالق ما زوده الله به ليكون عوناً له في أن يكون. ذلك المحرك هو الذات. فإن لم يبدأ

الإنسان البحث عن الذات والعودة إليها لتكون محركه في حركاته وكل أفعاله، فإنه سيبقى في طريق الضياع والضلال، بعيداً عن السبيل الموصلة إلى تحقيق الوظيفة التي كان من أجلها. وحتى يكون الإنسان فإن عليه أن يبدأ بالوجود أولاً، وهو لن يوجد على الحقيقة إلا بعد أن يدرك أنه كائن كوني، خلق من أجل وظيفة محددة، وأن وجوده يكون بحسب نسبة هذا الإدراك لديه، ليبدأ بعدها السير في طريق الوجود الحق. وإذا كانت الموجودات كلها خاضعة لله وإرادتها مرتبطة بإرادته سبحانه وتعالى فإن الإنسان هو وحده الذي تتقدم إرادته على الإرادة الإلهية، كما يتقدم فعله على الفعل الإلهي، وذلك بحسب قول الله سبحانه وتعالى مخاطباً خليفته في الأرض: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[١].

يا هذا، أنت متحرك ساكن، متحرك بغيرك ولكنك مكانك لا تتقدم، ولو كنت ساكناً لكان أنجى لك، فالكافر يقول يوم القيامة يا ليتني كنت ترابا، فكن متحركاً بك ولا تكنه بغيرك، وها أنت قد أمضيت شطراً من حياتك متحركاً بسواك، فانظر أين أنت، وما حل بك، فهل أنت راض عنك؟ أما آن الأوان لتتحرك بك وليكون هو محركك، ابدأ ليبدأ، وغيّر ليغير، كن لتكون، تحرر من عبوديتك بالعبودية، واعلم أنه أنت الذي سيموت وأنه لن ينوب أحد عنك بالنزول في قبرك، وأن أحداً لن يحاسب

[١] الرعد/١١

بالنيابة عنك. اقرأ سورة يس، وتمثلها وأنت قادر على ذلك، قبل أن تقرأ عليك وأنت في قبرك عاجز، وحالك يقول: لو أن لي كرّةً أخرى.

مراجع الدراسة

١- شريعتي. د. علي، **العودة إلى الذات**، تر: إبراهيم الدسوقي شتا، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي،٢٠٠٢.

٢- النقوي. د. علي محمد، **الاتجاه الغربي من منظار اجتماعي**، تر: عبد الكريم محمود، طهران، ١٩٩٧.

٣- القشيري. **الرسالة القشيرية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٨.

٤- بو عزيز. محمد العربي، **محمد إقبال**، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٩.

5- Dictionnaire Critique de la Sosciologie. P.U.F. Paris, 1982. P/ 133

6- Lahbabi, Mohamed Aziz, **le Personalisme Musulman.** P.U.F. Paris, 1964